٣/٤ نور

اقرأ

عبد المطلب جدّ الرسول

الدكتور علي حسني الخربوطلي

دار المعارف بمصر

عبد المطلب

جدّ الرسول

الدكتور على حسنى الخربوطلى

عبد المطلب
جد الرسول

اقرأ ٢٧٧
دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع

فهرس

	صفحة
١ ــ فجر حياة عبد المطلب	١٠
٢ ــ عظيم قريش	٢٠
٣ ــ زعيم مكة	٣٨
٤ ــ حفر زمزم	٥٥
٥ ــ حملة الفيل	٦٨
٦ ــ عبد المطلب فى أسرته	٨٩
٧ ــ جد الرسول	١٠٠
٨ ــ خاتمة حياة مجيدة	١٢١

مقدمة

هذه دراسة لسيرة علم من أبرز أعلام العروبة ، وهو عبد المطلب ابن هاشم ، أعظم الشخصيات العربية التى عاشت قبيل ظهور الإسلام، ويمثل مرحلة انتقال بين العصر الجاهلى والعصر الإسلامى .

اعتاد بعض المؤرخين أن ينظروا إلى العصر الجاهلى على أنه عصر ظلمات وفوضى . إلا أنه مع تقدم الدراسات العربية ، أثبت العلماء — العرب وغير العرب — أنه كان للعرب فى ذلك العصر حضارة وثقافة ، ونظم اجتماعية واقتصادية . وقد ظهرت فى بلاد العرب فى العصر الجاهلى دول ومدن متحضرة أهدت الدول المجاورة لها ألواناً من الفنون والعلوم والآداب . وأثبت العرب فى تلك الفترة تفوقاً واضحاً فى الميدان الاقتصادى وخاصة التجارة .

وفى شخصية عبد المطلب بن هاشم تتمثل عدة جوانب هامة ، فهو جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد عاش فى كنفه منذ مولده حتى بلغ الثامنة من عمره ، فإذ ذاك مات عبد المطلب . وكان محمد فى حياته موضع رعايته وعنايته وتكريم منه ، حتى إذا شعر الجد بقرب وفاته أوصى ابنه أبا طالب بكفالة ابن أخيه ، اليتيم الخالد .

وعبد المطلب هو عظيم قريش ، عمل على رفع شأن هذه القبيلة فى بلاد العرب ودول العالم القديم ، ونجح فى أن يوحد بين بطونها المختلفة . فبدت فى وحدة قوية متماسكة ، وأصبحت أعظم القبائل العربية حضارة ، وبرز من بين أبنائها رجال على قدر كبير من الثقافة والدراية بالشئون السياسية والاقتصادية وقد تولى كثير منهم بعد ظهور الإسلام واعتناقهم

هذا الدين الرشيد، مناصب القيادة السياسية والاقتصادية فى الدولة الإسلامية الوليدة التى قامت بعد هجرة محمد من مكة إلى المدينة المنورة .

وفى عهد عبد المطلب جابت قوافل قريش جميع دول العالم القديم، شمالا وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، وبلغت قريش من الرفعة والمجد ما جعلها جديرة بأن يظهر من بينها خاتم الأنبياء وسيد المرسلين .

وعبد المطلب هو أيضاً زعيم مكة ، تولى الزعامة السياسية والرئاسة الروحية . وكانت الحياة السياسية فى الحجاز قبل الإسلام تأخذ شكل وحدات سياسية تقوم فى المدن الكبرى ، مثل مكة ويثرب والطائف ، كما كانت الحال فى المدن الرومانية القديمة . وقد ارتفع شأن مكة فى عهد عبد المطلب حتى أصبحت قلب الجزيرة العربية النابض، ومركز التجارة العالمية ، وأصبحت تعج بآلاف الحجاج ولتجار يفدون عليها من جميع بلاد العالم . وارتبطت مكة بمعاهدات صداقة وحسن جوار مع الدول الفارسية والرومانية والحبشية واليمنية .

وتولى عبد المطلب سدانة الكعبة وإمارة الحج ، فكان يتولى الرفادة وهى إطعام الحجاج ، كما تولى السقاية أى توفير المياه اللازمة لهم . وكان توفير الطعام والماء للحجاج مشكلة كبرى لأسلاف عبد المطلب ، إذ أن طبيعة مكة لم تجد عليها بالموارد الاقتصادية الكافية . وبذل عبد المطلب الجهد وأنفق من ماله حتى نجح فى سدّ حاجات الحجاج من الطعام والماء .

وشاءت العناية الإلهية أن تحيط بعبد المطلب وأهل مكة ، فقد نجح عبد المطلب فى الكشف عن بئر زمزم التى تفجرت فى عهد جده الأكبر إسماعيل ، ثم عفا عليها الزمان فاندثرت وضاعت معالمها . وقام عبد المطلب وابنه الحارث وحدهما بالبحث عن مكان بئر زمزم وإعادة حفرها ، فتدفق الماء فى جوانب مكة وعاد على أهلها بالخير العميم .

وفى عهد عبد المطلب وقع حادث تاريخى كبير ، كان له أثره الكبير فى بلاد العرب وارتبط بالسياسة العالمية إذ ذاك . فقد قدم أبرهة الأشرم على رأس جيش كثيف من الأحباش ، بتحريض من الدولة الرومانية ، لغزو مكة ، وهدم الكعبة ، وتحويل الحجاج العرب إلى كنيسته بصنعاء . ونجح عبد المطلب فى تنظيم عملية الدفاع عن مكة خلال الغزو ، وحاول التفاوض مع الأحباش . ثم تدخلت العناية الإلهية فدفعت هذا الخطر الداهم عن الكعبة ومكة . ويعتبر المؤرخ (براون) عام الفيل الذى شهد هزيمة الأحباش فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية ، ولو أتيح لهذا الجيش الحبشى النصر لتغير وجه التاريخ . وأصبح العرب يؤرخون حوادثهم بعام الفيل .

خلاصة القول ، أن عبد المطلب كان أعظم شخصية فى المجال السياسى والميدان الاقتصادى والحياة الدينية ظهرت فى بلاد العرب خلال جاهليتها ، وكانت سنواته الثمانون التى عاشها سنوات مجد وعظمة . وشهدت الثمانية أعوام الأخيرة من حياته مشرق النور فى العالم ، بظهور محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعد ، فهذه هى ملامح عامة لسيرة بطل من أبطال العروبة ، يراها القارئ مفصلة فيما بعد . وأرجو أن أكون قد وفقت بها فيما قصدت ، والله ولى التوفيق .

المؤلف

١ – فجر حياة عبد المطلب

سليل المجد :

من مآثر العرب اهتمامهم بحفظ الأنساب ، فقد كانوا يتفاخرون بأمجاد الأجداد ، ويتباهون بمآثر الآباء ، وقد حفظوا بذلك لنا تراثاً ذاخراً أعاننا على الدراسة والبحث والاستقصاء . وقد ورث عبد المطلب المجد عن أحد أجداده الأقربين وهو قصى بن كلاب ، فعبد المطلب هو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب .

وقصى بن كلاب هو الزعيم العربى الذى وضع أسس أمجاد قريش ، فارتفع ذكرها فى الآفاق وقد كانت قريش قبله متفرقة فجمع قصى شملها ووحد صفوفها . وكانت السيادة السياسية والدينية قبل قصى لقبيلة خزاعة ، فنجح قصى فى انتزاع هذه السيادة لقريش . فنصبته قريش ملكاً على مكة ، فكان قصى « أول ولد كعب بن لؤى أصاب ملكاً أطاع له به قومه فكانت إليه الحماية والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله »(١) وسمت العرب قصياً « مجمعاً » لما جمع من أمرها . وتيمن قومه به ، فكانوا يعقدون الزواج دائماً فى داره ، ويستشيرونه فى مهام أمورهم .

أنشأ قصى دار الندوة ، وفيها كان يجتمع كبار القرشيين يتباحثون فى شئونهم ، وتولى إطعام الحجاج وسقايتهم . ووضع لمكة ولقريش قوانين تنظم

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٨ .

العلاقات وتضمن للتجار والحجاج الأمان والسلام .

أنجب قصى ثلاثة أبناء هم : عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى . ورغم أن عبد الدار كان أكبرهم سناً إلا أن عبد مناف كان أقوى شخصية فتفوق على أخويه . وشعر قصى أن عبد مناف قد نجح فى كسب احترام قومه ورأى أن يعوض عبد الدار عما افتقده فأسند إليه بعض المناصب ليعتز بها على أخيه، فمنحه الإشراف على دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة .

ثم حانت منية قصى ، وقام عبد الدار بما أسنده أبوه إليه ، وورث أبناؤه عنه هذه المهام . ولكن سرعان ما نازعهم عليها أبناء عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، فقد رأوا أنهم أجدر وأقدر من أبناء عبد الدار . وأدى هذا التنافس إلى انقسام قريش، وجنح الفريقان إلى السلم ، فاتفقوا جميعاً على أن يتولى بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، وتكون الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة لبنى عبد الدار .

أنجب عبد مناف بن قصى أربعة أبناء : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال ، ونوفل بن عبد مناف وأمه واقدة بنت عمرو المازنية . أما هاشم فهو والد رجلنا عبد المطلب .

الأب والأم :

تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن أجداده ، فقال : « اختار الله من إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » .

يروى المؤرخون أن عبدشمس وهاشماً كانا توءمين ، فولد هاشم ورجله فى جبهة عبد شمس ملتصقة ، فلم يقدر على نزعها إلا بدم ، فكانوا

يقولون : سيكون بين ولديهما دماء . فكانت تلك الدماء ما وقع بين بنى هاشم وبنى أمية بن عبد شمس .

اقتسم هاشم وأخوه عبد شمس المناصب التى أسندت إلى عبد مناف ، فتولى هاشم السقاية والرفادة ، وتولى عبد شمس القيادة . ثم حدث أن مرت مكة بفترة قحط وجدب ، وعانت قريش الجوع والضنك ، فرحل هاشم إلى فلسطين حيث اشترى كمية كبيرة من الدقيق ، فقدم به إلى مكة ، وصنع منه خبزاً ، ثم قام بذبح الذبائح ، ثم صار يهشم الخبز لقومه ، فسموه هاشماً وكان اسمه عند مولده (عمرو) .

ذاع صيت هاشم ، مما أثار الحسد والبغضاء فى نفس أمية بن عبد شمس ، وكان على جانب من الثراء ، فأراد أن يحتذى حذو هاشم ، ولكنه عجز عن ذلك ، وأبدى بعض القرشيين شماتة مما أثار غضب أمية فنال من هاشم ودعاه إلى الاحتكام إلى رجل من العرب ليحكم أيهما أعز نفراً وأكثر فضلا ، ورأى أن من تكون عليه الغلبة ينحر خمسين ناقة سود الحدق ببطن مكة وأن يجلو عن مكة عشر سنين ، وحكم هذا الكاهن لهاشم بالفضل والسبق ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها للقرشيين ، ورحل أمية إلى الشام حيث عاش سنين ، فكانت هذه الحادثة كما يقول الطبرى(١) « أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية » .

سن هاشم رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام . وأصبحت مكة مقصد التجار من كل مكان ، وزاد ثراء القرشيين وذاع صيتهم ، وشهدت مكة أسواقاً حافلة تنصب فيما حولها ، وعرف القرشيون أرقى نظم التجارة .

هذا هو الأب ، زعيم من زعماء مكة ، وعظيم من عظماء قريش .

---

١) الطبرى ج ٢ ص ١٣ .

لأم فهى سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن حرام بن خداش
جندب بن عدى بن النجار ، من يثرب . حدث أن كان هاشم
سداً إلى الشام فى رحلة تجارية ، فمر فى طريقه بيثرب ، وهناك لمح
ة ذات شرف وحسب تطل على قوم يتجرون لها ، فنالت إعجابه
حسانه . فسأل عمن تكون ، فعلم أنها سلمى بنت عمرو الخزرجية ،
ا مطلقة ، وأنها لا ترضى زوجاً إلا أن تكون عصمتها بيدها . وألا تلد
اً إلا فى أهلها . وكان بنى عدى بن النجار من أعرق بيوت يثرب ،
ثرهم شرفاً وعزة ، فرأى هاشم أن يقبل شروط سلمى حتى يصاهر
لاء القوم الأمجاد ، فتقدم هاشم إلى أبيها عمرو بن زيد خاطباً فوافق
ى الزواج .

لم يتعجل هاشم الزواج من سلمى ، فقد رأى ألا يشغله الزواج عن
جبه نحو قافلته ، فاستمر فى طريقه إلى بلاد الشام ، آملا أن يستعين
ء من أرباحه فى الزواج المقبل . وعاد هاشم من الشام رابحاً غانماً ، ومر
طريقه مرة أخرى بيثرب ، حيث تم الزفاف ، وبعد فترة رحل الزوجان
ى مكة . وفى مكة شعرت سلمى بحملها ، حتى إذا قرب موعد الوضع
ان على هاشم أن يبر بوعده وينفذ ما اشترطته عليه بأن تضع وليدها فى
دتها يثرب ، ونفذ هاشم عهده فصحبها إلى يثرب ، وخلفها فى بيتها ،
ضى فى طريقه بقافلته إلى بلاد الشام .

ولكن الحياة لم تبتسم طويلا لسلمى ، فقد وافت هاشم منيته وهو فى
زة ، فمات فى ريعان شبابه ، وهو فى عقده الثالث . وفى يثرب وضعت
سلمى طفلها « شيبة الحمد » ، الذى أصبح اسمه فيما بعد عبد المطلب ،
قد أطلقت سلمى عليه هذا الاسم إذ ولد وفى شعره خصلة بيضاء .

نشأة فى يثرب :

شب عبد المطلب بين غلمان بنى النجار ، فكان يشاركهم مرحه وألعابهم ، وكان فى طفولته مهاباً قوى الشخصية ، وكانت أمه تذكره دا بنسبه إلى أبيه هاشم زعيم قريش ، ولذا كان دائماً يفخر على أترابه م الغلمان فيقول : « أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء »(١) . وحدر يوماً أن استمع إلى هذه العبارة رجل من بنى الحارث بن عبد مناة فهرع إلى المطلب فى الكعبة ، ينقل إليه ما سمعه ، فأقسم المطلب أ يعود إلى داره حتى يأتى بهذا الغلام ، وقدم الحارثى له ناقته ، فامتطاه المطلب و بدأ رحلته إلى يثرب .

قصد المطلب المكان الذى وصفه الحارثى له حيث كان الغلمان يلعبو فرآهم ما زالوا يلعبون بكرتهم ، واستطاع المطلب أن يميز من بينهم ابن أخي رغم أنه لم يره من قبل ، فقد كان شبيهة قريب الشبه إلى أبيه هاشم . وتقد بعض القوم إلى المطلب ينصحونه أن يصحب ابن أخيه فى الحال دون أن تعلم أمه بذلك حتى لا تحول بينه و بين ابنها اليتيم . وحاول المطلب أن يستميل قلب ابن أخيه إليه فقال : يا ابن أخى ، أنا عمك ، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك .

وروى الطبرى(٢) روايتين مختلفتين حول موقف شيبة من دعوة عم المطلب . فتذكر الرواية الأولى أن شيبة استجاب لنداء عمه فامتطى عجز الناقة فانطلق المطلب به ، دون علم أمه ، حتى جن الليل ، فعلمت الأم من الناس برحيل ابنها مع عمه . ووصل المطلب إلى مكة فى الضحى والناس

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٨ .
(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٩ .

مجالسهم وكان كل من سأل عمن يكون هذا الغلام . أجابه المطلب : بد لى ! ومضى المطلب بشيبة إلى بيته حيث عهد به إلى زوجته خديجة ت سعيد بن سهم ، زاعماً لها أن شيبة من عبيده ، دون أن يفضى لها لحقيقة ، زيادة فى الكتمان . ثم خرج المطلب من داره إلى سوق الحزورة » حيث اشترى حلة فألبسها شيبة . وفى المساء ، صحب المطلب ن أخيه إلى مجلس عبد مناف ، ثم طاف به طرقات مكة ، وقد ارتدى حلته الجديدة الزاهية ، فكان الناس يقولون : هذا عبد المطلب .

أما الرواية الثانية التى رواها الطبرى[١] ، فتذهب إلى أن شيبة أبى أن يصحب عمه حتى يستأذن أمه ، واضطر المطلب أن يصحب شيبة إلى دار سلمى ، حيث ألح عليها فى أن يصحب ولدها إلى مكة ، مسقط رأس أبيه ، وأبت سلمى أن تتخلى عن ابنها ، ولكن المطلب لم يزل بها حتى أذنت له ، ورحل المطلب بشيبة بعد أن استضافته سلمى وأكرمته . ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية الثانية وقد رواها أيضاً ابن هشام وهو أقدم من الطبرى .

قالت سلمى للمطلب : لست بمرسلته معك . فقال المطلب : إنى غير منصرف حتى أخرج به معى ، إن ابن أخى قد بلغ ، وهو غريب فى غير قومه ، ونحن أهل بيت وشرف فى قومنا ، نلى كثيراً من أمورهم ، وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة فى غيره[٢] .

أثرت السنوات السبع أو الثمان التى قضاها عبد المطلب فى يثرب فى شخصيته وخلقه وعقله . وقد كانت يثرب أطيب جواً وأكثر خصوبة وأوفر إنتاجاً زراعياً من مكة . وكان اليهود يمثلون جانباً من سكان يثرب ، وقد نشروا بين أهلها تعاليم التوراة من بعث وحساب .

---

(١) جـ ٢ ص ٩ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٣٨ .

عبد المطلب فى مكة :

أصبح اليتيم يعيش فى مكة بعيداً عن أمه ، ولكن المطلب وبنى هاش عوضوه عما افتقده من حنان . وأصبح عبد المطلب يجمع بين فطنة أهل مكة ومهارتهم فى المجال الاقتصادى ، وتفوقهم فى التجارة ، وحبهم للمغامرات والترحال وبين سجايا أهل يثرب ، فقد اشتهروا بدماثة الخلق ، وهدوء الطبع ، وسماحة النفس ، لما توفره طبيعة يثرب من سهولة فى العيش .

كان مجلس عبد المطلب معظم يومه إلى جوار الكعبة ، مع بنى هاشم حجاب الكعبة وسدنتها . وكان هذا المجلس هو المدرسة التى تلقن فيها عبد المطلب تعليمه ، فقد كانت مكة تزخر بالحجاج والتجار القادمين من جميع أرجاء العالم القديم .

زواج عبد المطلب من سمراء :

مرت السنون ، وأصبح الغلام القادم من يثرب مفارقاً أمه وأخواله شاباً يافعاً . والأخبار عن شباب عبد المطلب المبكر قليلة ، ولكن المؤرخين يجمعون على أن عبد المطلب كان حسن الخلق ، حميد الصفات ، مبتعداً عن رذائل الجاهلية ، فكان يحرم الزنا ، ويكره شرب الخمر ، وينهى عن القتل ، ويروى المؤرخون أن عبد المطلب تخلى عن صداقة حرب بن أمية وكان من أحب أصدقائه إليه ومن ندمائه ، فقد أقدم حرب على قتل رجل يهودى ، فكره عبد المطلب فعله ، بل جعل نفسه ولى اليهودى القتيل وطالب حرب بن أمية بديته .

آن أوان زواج عبد المطلب ، فاختار زوجته من البادية ، رغم أنه حضرى ، نشأ فى يثرب ، وشب فى مكة . وكانت عروسه المختارة هى

سمراء بنت جندب بن حجير بن رئاب بن حبيب بن سواءة بن عامر بن صعصعة[١]. وشعر بنو صعصعة بالفخر والزهو إزاء هذا الزواج، فقد كانت قبائل البادية تفخر إذ يجمعها بقريش صلة نسب ومصاهرة. وأبدت سمراء سروراً وحبوراً. وكانت تتميز بالجمال البدوى، إلى جانب الأنوثة والرقة والطهارة، التى اشتهرت بها فتيات البدو.

ووجد عبد المطلب عند زوجته ما نشده من هدوء واستقرار وسعادة، حتى يتفرغ للمهام الكبرى التى يعده القدر ليتولاها، ألا وهى زعامة مكة ورئاسة قريش. وما لبث أن قرت أعينهما حينما أنجبا ولدهما الحارث، الذى تخبئ الأقدار له دوراً كبيراً فى التاريخ، إذ يشارك أباه عبد المطلب فى إعادة حفر بئر زمزم المقدس. وأصبحت كنية عبد المطلب منذ الحين (أبا الحارث).

صراع بين عبد المطلب وعمه نوفل :

خلف المطلب أخاه هاشماً فى مناصبه، فأصبح المطلب يطعم الحجاج ويسقيهم كما كان هاشم يفعل من قبل. وكان المطلب أصغر سناً من أخيه عبد شمس، ولكنه كان محبوباً من القرشيين حتى إنهم كانوا يسمونه (الفيض) لسماحته وكرمه.

شب عبد المطلب وأصبح شاباً ناضج العقل راجح الفكر، ورأى عمه المطلب أن الأوان قد آن ليصبح عبد المطلب سيد قريش وحامى الكعبة كما كان أبوه هاشم من قبل. فأراد المطلب أن يرد على ابن أخيه أموال هاشم وأملاكه. ولكن نوفل بن عبد مناف أبى أن يتخلى عما فى يده من

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٠٩.

مال . كما كان هناك عبد شمس يريد أن ينتزع شرف إطعام الحجاج وسقايتهم .

شعر عبد المطلب بالحرج من عمه نوفل بن عبد مناف ، ولجأ إلى كبار رجالات قريش يشكو إليهم موقف عمه منه ويطلب النصرة منهم ، ولكنهم شعروا بالحرج أيضاً وأبوا التدخل بين العم وابن أخيه ، فاضطر عبد المطلب إلى الاستنجاد بأخواله من بنى النجار فى يثرب .

استجاب بنو النجار لنداء عبد المطلب ، فخرج أبو أسعد بن عدس النجارى على رأس ثمانين فارس ، وقصد إلى مجلس نوفل عند الكعبة ، فوقف على رأسه ، واستل سيفه ، وخيره بين أن يرد على عبد المطلب ما سلبه منه أو يقتله بالسيف ، فأقسم نوفل أن يرد على عبد المطلب ما له ، وأشهد النجارى عليه رجال قريش . واستضاف عبد المطلب خاله ثلاثة أيام ، أدى فيها العمرة .

مطلع الزعامة :

اضطر نوفل على هذا النحو إلى أن يرد إلى عبد المطلب كل ما سلبه إياه من أموال وساحات وقام عبد المطلب بما كان يقوم به أبوه هاشم من مهام ووظائف ، فأصبح له السقاية والرفادة ، وكان يتولاها عمه المطلب الذى لم يكن له أولاد يرثون عنه هذه المناصب . وأراد نوفل أن يرد على هذا التحالف الذى شهدناه بين عبد المطلب وأخواله من بنى النجار ، فحالف بنى عبد شمس ليستعين بهم فى منابذة بنى هاشم . ولكن عبد المطلب أقنع رجالات قريش أنه الزعيم المنتظر والرجل الموعود . وأصبحت داره مقصد زعماء مكة وقريش ، ونمت ثروة عبد المطلب فأصبح يمتلك أعداداً كبيرة من الإبل والخيل .

يلخص ابن هشام ما وصل إليه عبد المطلب من مجد وعظمة فيقول : « ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم »[١].

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٢ .

٢ – عظيم قريش

زعامة عبد المطلب لقريش :

نشأ إسماعيل فى قبيلة جرهم اليمنية بمكة بعد أن قدم أبوه إبراهيم به . وظلت زعامة مكة وولاية الكعبة فى جرهم حتى طغوا وتجبروا وأساءوا معاملة الحجاج واستولوا على أموال الكعبة(١). وقدمت قبيلة خزاعة من اليمن فأجلت جرهم وانتزعت منها السيادة ، واستمرت تتولى شئون الكعبة أكثر من ثلثمائة سنة أحدثوا فيها كثيراً من الأوهام الفاسدة ولا سيما عبادة الأوثان حتى برزت قبيلة قريش واستطاعت أن تجمع شملها وانتزعت السيادة من خزاعة وأصبح زعيم قريش قصى بن كلاب زعيماً لمكة أيضاً .

تنازع أبناء عبد الدار وعبد مناف ابنا قصى حول السيادة فى مكة مما أدى إلى انقسام قريش ، ثم اتفقوا على أن تكون لبنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وتكون الحجابة واللواء ودار الندوة لبنى عبد الدار .

كان هاشم بن عبد مناف موسراً ، تولى الرفادة والسقاية ، وكان يأخذ من القرشيين بعض مالهم كل سنة لتوفير الطعام والماء للحجاج . وهو أول من سن رحلتى الشتاء والصيف . وتولى المطلب بعد أخيه هاشم السقاية والرفادة ثم عهد بهما إلى ابن أخيه عبد المطلب .

وفى عهد عبد المطلب حدث الشقاق بين بنى هاشم وبنى أمية ، ذلك

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة ص ٣٦ .

سقاق الذى استمر طوال العصر الأموى. فقد دب النفور بين عبد المطلب
ن هاشم وحرب بن أمية. شعر حرب بالغيرة الشديدة من عبد المطلب
ستحكم العداء بينهما ، مما هدد بانقسام قريش . ورأوا أن يلجأ الطرفان
تنازعان إلى التحكيم ، جرياً على عادة العرب حينئذ . واحتكما إلى
يل بن عبد العزى ، فحكم لعبد المطلب ، بل توجه باللوم إلى حرب
نال له : يا أبا عمرو ، أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك
امة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل
نك صفدا ، وأطول منك مزودا[1].

كانت حكومة مكة من النوع الذى يسميه علماء الاجتماع
الباتريباركا» أى تتبع نظام الأبوة أو سيادة الرجل ، فكان لمكة أو لقريش
عيم بارز يخضع له الجميع .

لم تعرف القبائل العربية فى بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها
ريش ، وإنما كان فى كل قبيلة نفر من « السادة » يعترف أفراد القبيلة
لهم بسلطان أدبى ، وكان أعظم أولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم
واجباته كثيرة ولكنها ليست محددة وإذا قامت الحرب أصبحت سيادته
ياسة فعلية . هذا بالنسبة للقبائل الظاعنة ، أما فى مكة فقد أخذت
لسيادة معنى حقيقياً بسبب الاستقرار وانتظام أمور الجماعة ووجود الكعبة
وضرورة وجود من يتولى شئونها . ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها
على سدانة الكعبة حتى انتهت إلى قريش ، على يد سيدها قصى بن
كلاب ثم حفيده عبد المطلب [2].

أصبحت لقريش فى عهد عبد المطلب صبغة دولية . فقد كانت

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٤ .
(٢) انظر الحاشية بكتاب تاريخ التمدن جـ ١ ص ٣٦ .

تربطها معاهدات سياسية واقتصادية بالدول الكبرى فى العالم القديم وكان توقيع هذه الدول لهذه المعاهدات هو بمثابة اعتراف الدول بقريش كوحدة سياسية لها كيانها وقوامها واقتصادها .

فقد عقد هاشم مع الإمبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة حسن جوار ومودة ، وتعهد الإمبراطور بالسماح لتجار قريش بالترحال فى أراضى الإمبراطورية فى سلام . وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع نجاشى الحبشة ، وعقد نوفل والمطلب معاهدة سياسية مع الدولة الفارسية ، ومعاهدة تجارية مع الدولة الحميرية العربية فى بلاد اليمن . ورأى العرب أن هاشماً وعبد شمس ونوفل والمطلب قد « جبر الله بهم قريشاً فسموا المجبرين »(١) .

مناصب عبد المطلب :

كانت المناصب فى قبيلة قريش خمسة عشر منصباً وزعها القرشيون فيما بينهم بالعدل والقسطاس ليرضوا كل بطون قريش وحتى لا يدب التنافس والتنافر بينها .

أما هذه المناصب فهى : (١) السدانة أو الحجابة أى الإشراف على الكعبة . (٢) السقاية أى توفير الماء للحجاج . (٣) الرفادة أى توفير الطعام للحجاج . (٤) الراية ويحملها أحدهم . (٥) القيادة أى إمارة الركب فى القتال أو التجارة . (٦) الإشناق أى الإشراف على الديات . (٧) القبة أى الإشراف على المهمات الحربية . (٨) الأعنة أى تولى شئون الخيل وقت الحرب . (٩) الندوة وهى دار الشورى يجتمع فيها كبار رجالات قريش ممن تجاوز عمرهم الأربعين للتشاور في مهام

١) الطبرى جـ ٢ ص ١٣ .

لأمور . (١٠) المشورة وصاحبها يستشار فى الأمور الهامة . (١١) السفارة ١٢) الأسيار وهى الأزلام التى يستخير ونها . (١٣) الحكومة أى الفصل ين الناس إذا اختلفوا . (١٤) الأموال المحجرة وهى أموال كانوا يسمونها لآلهتهم . (١٥) العمارة أى منع الكلام بصوت عال فى الكعبة[١] .

تولى هذه المناصب أفذاذ من بطون قريش ، أى أن قريشاً كونت جمهورية صغيرة تولاها أكفأ أبنائها ، وكانت قريش تشجع العرب على الحج إلى الكعبة ، ولذا عملت على إنصاف المظلوم ونشر العدل ، كما وفرت الماء والطعام للحجاج .

كانت السقاية والرفادة من أبر ز المناصب التى تولاها عبد المطلب. أما السقاية ، فتعنى سقاية زمزم ، فكان على عبد المطلب توفير الماء للحجاج ، ومزجه بعسل أو تمر . أما الرفادة ، فهى توفير الطعام للحجاج وكانت قريش تتعاون فى سبيل ذلك . وقد تولى عبد المطلب السقاية والرفادة باعتباره من بنى مناف ، بينما تولى أبناء عمومته بنو عبد الدار الحجابة واللواء ودار الندوة ، كما قضى بذلك المحكمون حينما ثار النزاع بين الفريقين على النحو الذى ذكرناه .

وإن كان بنو عبد الدار قد تولوا أمر دار الندوة من الناحية الرسمية ، إلا أن عبد المطلب كان زعيمها الروحى ، باعتباره زعيم قريش ومكة . وكانت هذه الدار هى دار حكومة مكة وتقع فى جنوب غربى الكعبة ، بناها قصى سنة ٤٤٠ م . وكان وجوه قريش ، وفى مقدمتهم عبد المطلب يجتمعون فى دار الندوة للتباحث فيما يهمهم من شئون . وكان أخطر اجتماع فى عهد عبد المطلب هو اجتماع القرشيين حين قدم أبرهة على رأس جيش الأحباش لغزو مكة وهدم الكعبة . وكانت هذه الدار مكان انطلاق قوافل

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٨ وتاريخ التمدن جـ ١ ص ٣٩ .

قريش للتجارة وعندها تنتهى . وإذا بلغ غلام لقريش عذر (أى ختن فيها . وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عل قيم الدار درعها (أى قميصها) ، ثم يبدأ أهلها فى حجابها . وكان الزوا مسألة قبلية ، فكان القرشيون يتشاورون فى تزويج بناتهم وتقرير مد كفاءة الزواج . وكانت هذه الدار هى التى اجتمع الوثنيون فيها لتدبير مؤام قتل الرسول ليلة هجرته إلى يثرب .

زعامة قريش للقبائل العربية :

كانت السياسة الحكيمة التى اتبعها عبد المطلب ، عاملا هاماً عل ارتفاع شأن قريش فى مكة ، ثم فى بلاد الحجاز جميعها ، ثم فى الجزير العربية ، بل سائر أرجاء العالم القديم . فقد كانت المعاهدات التى عقده بنو هاشم مع الدول المعاصرة لهم بمثابة اعتراف بقريش كدولة ، وهى وإ كانت تختلف عن غيرها من الدول إلا أنها الصورة التى تناسب ظروف مكة و بلاد الحجاز .

وأدى إخفاق غزو الأحباش لمكة فى عهد عبد المطلب : إلى ارتفاع ذكر قريش فى أرجاء الجزيرة العربية ، فقد أدرك العرب أن العناية الإلهية ترعى قريشاً وتصد عنها أعداءها .

اعتاد المؤرخون أن ينظروا إلى المجتمع العربى فى الجاهلية نظرة تقوم على وحدة القبائل وتفردها ، فذهبوا إلى أن القبائل هى مجموعة عصبيات متناحرة ، وكأن كل قبيلة أمة مستقلة . والحقيقة أن المجتمع العربى الجاهلى لم يكن على هذه الصورة من الجمود والتشتت ، ولم تعش القبائل فى هذا التحاجز والتباعد ، بل كانت هناك حركة متحركة تقارب بين القبائل

سل بينها بالنسب وتصل بينها بالحلف ، وكانت هناك حركة نشيطة بين بائل فى داخل الجزيرة العربية (١) .

أسست قريش حكومة جمهورية من نوع الحكومات التى كانت فى اد العرب ، واتخذوا جزءاً من الأرض المجاورة للكعبة أولوه احترامهم عتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة ، كما أصبحت قريش محترمة فى نظر القبائل العربية .

عدد الجاحظ ما تميزت قريش به على سائر القبائل العربية ، فتحدث ن كرمها وسخائها ، وتفوقها العقلى ، ونضوج أفكارها ، وحسن تدبيرها ، ماحة أخلاقها ، ووصف الجاحظ كيف وصلت قريش قديمها بحديثها .

ولما كانت قريش قبيلة تجارية فقد رأت من حسن السياسة أن ر السلام فى مكة ، وتحفظ التوازن بين القبائل ، حتى تضمن الأمن وافلها ، وساعدها على تنفيذ سياستها موقع مكة الجغرافى ، فقد كانت كة تقع فى منتصف الطريق ، وكانت القوافل تستقى من زمزم وتأخذ اجتها من الماء ، ولأن قريشاً أهل الكعبة التى يدين العرب بعظمتها ويكنون الاحترام .

قال الزمخشرى فى الكشاف : «كانت لقريش رحلتان ، يرحلون الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، انوا فى رحلتهم آمنين ، لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض م ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم . قال تعالى : (أو لم نمكن م حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم يعلمون) .

اعتبرت قريش الأرض المحيطة بالكعبة مكاناً مقدساً وتجعله حرماً

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية ص ١٨ .

لا يحل فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فاطمأنوا عندئذ إ
أنهم فى أمن وسلام من اعتداء القبائل عليهم ونشوب المعارك فى جوارهم
وقد زاد فى مجد قريش أنها فى مكة ، وأن الكعبة فى مكة(١).

وعملت قريش على توثيق الروابط بين من يؤمون البيت الحرام ك
عام من مختلف القبائل ، إذ أصبحت مكة المكان الذى تفد إليه القبائ
من كافة أرجاء بلاد العرب حيث يجتمعون للحج والتجارة . وقد جعل ه
الأمر لقريش مركزاً خاصاً فى نفوس القبائل وأتاح الفرصة لكثير م
رجال هذه القبيلة ، فظهرت مواهبهم بعد ظهور الإسلام . وكان منه
رجال كثيرون يعتبرون بحق من أكبر قادة العالم فى الحرب والسياسة(٢).

عبد المطلب وتجارة قريش :

استن هاشم بن عبد مناف رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف
إلى بلاد الشام ، وبرزت فى عهد ابنه عبد المطلب أهمية هذه الرحلات
وأثرها فى حياة قريش ومكة ، بل فى حياة الجزيرة العربية كلها . وفى
عهد عبد المطلب وصلت تجارة قريش إلى ذروتها ، فقد بدأ القرشيو
يجنون ثمار المعاهدات التجارية واتفاقات حسن الجوار التى عقدها هاش
وإخوته مع دول الفرس والروم والأحباش والغساسنة والحميريين باليمن
وأصبحت تجارة قريش تعرف طريقها إلى كل مكان فى العالم القديم
وعمل القرشيون كتجار أو كوسطاء تجاريين أو كناقلين للتجارة . وازدا
ثراء قريش فى عصر عبد المطلب زيادة كبيرة، وأدى هذا الثراء إلى
انتشار الحضارة فى قريش وإلى انتشار الرخاء فى مكة .

---

(١) الحضارة الأموية ص ٧٩ .
(٢) تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧ .

أشار القرآن الكريم إلى رحلات قريش فى الآية الكريمة : (لإيلاف يش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) . والايلاف شىء كان يحمله شم لرؤساء القبائل من الربح ، ويجعل لهم متاعاً مع متاعه ، ويسوق بهم إبلا مع إبله ، ليكفيهم مؤنة الأسفار ، ويكفى قريشاً مؤنة الأعداء ، كان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً .

وهاشم هو الذى تنسب إليه (غزة هاشم) فى بلاد الشام ، فقد كان فضل دائماً الرحيل إليها للتجارة ، وحذا أبناؤه حذوه بعده . فكان هاشم يلف إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل ى فارس ، يؤلفون الجوار بعضهم بعضاً ، ويجيرون قريشاً بميرهم ، وكانوا سمون المجيرين .

وكانت تجارة قريش قبل هؤلاء العظماء لا تعدو مكة ، إنما يقدم تجار الأجانب إلى مكة بالسلع المختلفة ، فيشترى القرشيون منهم سلعهم ، يتبايعون فيما بينهم ، أو يبيعونها لمن حولهم من العرب .

أدى نشاط هؤلاء الزعماء الأربعة من قريش إلى نمو ثروة قبيلتهم تساع تجارتها ، ، فسماهم قومهم (المجيرين) ، وأطلق عليهم سائر عرب اسم (أقداح النضار) لطيب أحسابهم وكرم فعالهم . فقد فتح ؤلاء القرشيون أمام قومهم أبواب التجارة مع الدولة الرومانية ، وبلاد لحبشة ، ومصر ، والدولة الفارسية ، وكانت قريش قد زهدت منذ زمن ويل فيما كانت تعتمد عليه القبائل الأخرى من غارات وغصوب ، صبحت تعتمد فى مواردها على التجارة ، وعملت التجارة على اختلاطهم لشعوب المجاورة[1] .

كانت الجزيرة العربية منذ أقدم العصور طريقاً عظيماً للتجارة ،

---

(١) كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ١٢٢ .

فطوراً ينقل العرب غلات جزيرتهم العربية، وخاصة بخور اليمن، ممالك أخرى كالشام ومصر حيث تحتاج المعابد إلى هذا البخور . وط ينقل العرب غلات بعض الممالك إلى البعض الآخر . وذلك لأن الب لم يكن طريقاً آمناً، فالتجأ إلى الطرق البرية . وكان فى الجزيرة العر طريقان للتجارة بين الشام والمحيط الهندى، أحدهما من حضرموت البحرين، والآخر يحاذى البحر الأحمر وتقع مكة فى منتصف ه الطريق .

واستفاد العرب جميعاً من هذه التجارة ، فمنهم من كان يسكن المد الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه، ومنهم من كان يستخدم فى التجا سائقاً أو حارساً أو دليلا . وبرغم حب العربى للغزو والغارات ، إلا حبه للوفاء وشعوره بالشرف وتقديره للوعد الذى يصدر منه ، جعله ينج فى الاشتغال بالتجارة .

كان اليمنيون يسيطرون على التجارة فى بداية الأمر ، ولكن بعد انهيا سد مأرب وانحطاط الحضارة اليمنية ، حل محلهم منذ القرن السادس الميلادى على ناصية التجارة عرب الحجاز وخاصة القرشيون .

فى عصر عبد المطلب نجح الأحباش فى القضاء على الدولة الحمير فى بلاد اليمن، وبدأت فترة الاستعمار الحبشى لبلاد اليمن . واستف القرشيون من انهيار هذه الدولة اليمنية ، فقد حلوا مكانهم فى ميدا التجارة .

كان القرشيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعو لحسابهم فى أسواق الشام ومصر ، وقليلا ما يبيعونها فى أسواق فارس ، لأ التجارة مع الفرس كانت فى يد عرب إمارة الحيرة. وجعل عرب الحجا مكة قاعدة لتجارتهم ، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم، ووصل المكيو قبيل الإسلام ، فى عهد عبد المطلب ، عندما كان العداء بين الفرس

والروم بالغاً منتهاه، إلى درجة عظيمة من التجارة ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم فى استيراد أدوات الترف وخاصة الحرير [١].

ويذكر المؤرخ (أوليرى) فى كتابه (الجزيرة العربية قبل محمد) أنه كان للرومان بيوت تجارية فى مكة ، وكانت تقوم بعملين ، العمل التجارى العادى ، والتجسس على أحوال العرب . كما كان فى مكة أحباش يتولون شئون تجارة بلدهم .

كان الجمل سفينة الصحراء ، وكانت القافلة أسطولها ، ويمكن أن نسمى البدو الذين يقودون قوافل قريش ملاحى الصحراء ، فقد جابوا الصحراء بإبلهم وقطعانهم وقوافلهم ، وتبين لنا الكتابات القديمة أهمية التجارة بين الأقطار الواقعة بين الحجاز ، وجنوب بلاد العرب ، والهند ، والحبشة ، واليمن ، وبين بلاد الشام .

بلغت ثروة قريش فى عصر عبد المطلب ذروتها . وقد مارس القرشيون جميع أعمال التجارة ، فقد مارسوا ما يشبه أعمال المصارف المالية . وكانوا يفضلون أن يستثمروا أموالهم فى تجارة الإبل والأغنام والأقمشة والمعادن والجلود والعطور والأصباغ والجواهر والأصواف والحرائر والحلى والأثواب المنسوجة فى مدينة (تانيس) والبصرة ودمشق ، والمصوغات المجلوبة من منف وهرموبوليس ، والعاج وريش النعام من الحبشة والسودان ، والأخشاب من صور وصيدا ولبنان والقراطيس من الشام ونابوليس [٢].

كانت بلاد العرب وعرة إلا على القرشيين ، لعلمهم بالصحراء وسبلها ومواضع الأمن والخوف فيها ، وقدرتهم على تحمل القيظ ، وعناء السير . ولم يكن لأهل الشام والحبشة وغيرهما سبيل للسير فى هذه الفيافى والقفار

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٣ .

(٢) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ١٣٩ .

عورة والأخطار. فاحتكر القرشيون تجارة بلاد العرب السعيدة ، والشام ، وغيرهما . وكان من أثر احتكارهم تلك التجارة واستقرارهم فى مكة أن حاز أهلها ثروات ضخمة .

ولم يكن حب أبناء الأشراف والنبلاء وأهل الشرف فى قريش للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم . أضف إلى ذلك ازدياد عددهم على الأيام ، لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل ، وعدم تعرضهم للمنازعات والحروب التى أنهكت قوى العرب فى جاهليتهم . كما ساعدتهم ثروتهم على قرى الضيف ، فلهجت بمحامدهم ألسنة الشعراء والوافدين على مكة من كافة أرجاء بلاد العرب (١) .

بعد نجاة مكة من الغزو الحبشى فى عهد عبد المطلب ، عظمت مكانة مكة الدينية ، كما عظمت مكانة قريش التجارية . وأصبح القرشيون لا يفكرون فى شىء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ، ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها ، وزاد المكيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصورها للترف فى هذه الجهة الصحراوية الجرداء (٢) .

ازدهرت التجارة فى مكة ، وصاحب هذه التجارة أعظم مظاهر العمرة والحج بهجة ، وهو انعقاد الأسواق السنوية العامرة فى مكة فى موسم الحج . وكانت الحياة العربية تصل فيها إلى أوج نشاطها وعظمتها .

كان الاشتغال بالتجارة يحتاج إلى الإلمام بالأحوال السياسية والتجارية فى العالم القديم ، ولذا اهتم القرشيون بدراسة العلاقات القائمة وقتذاك بين الفرس والروم والأحباش واليمنيين ، والمشاكل التى تشوب هذه العلاقات .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٦٣ .
(٢) هيكل : حياة محمد ص ٦٥ .

وأصبحت تجارة قريش مدرسة أو جامعة عملت على تكوين أفراد ذوى خبرة وتجارب وعلم يصعب على المدارس أو الجامعات العادية تخريجهم فيها . وكانت التجارة تقتضى الإلمام بجوانب الحساب التجارى وكل ما يرتبط بالتجارة من الدراية بالمكاييل والموازين والمقاييس العالمية ، وما يتعلق بالنقد الأجنبى والعملات الدولية ، والعقود والصكوك ، وغير ذلك من الأساليب التجارية ومستلزماتها الضرورية .

كما أصبحت جدة ، التى كانت تبعد عن مكة بنحو أربعين ميلا ميناء قريش . وامتلك القرشيون عدداً كبيراً من السفن كانوا يعبرون بها البحر الأحمر إلى الحبشة ، برغم خطورة الملاحة فى هذا البحر وقتذاك حيث كانت السفن لا تزال بدائية الصناعة .

وأصبح القرشيون وسطاء تجاريين بين إقليم البحر المتوسط المعروف بغلاته المتميزة المتوافرة فى الشام وفلسطين وآسيا الصغرى ، وبين ذلك الاقليم الموسمى فى جنوب الجزيرة العربية الذى يشتهر بغلات كان العالم القديم يحتاج إليها ، مثل التوابل والبخور .

استفاد القرشيون فوق تجارتهم المادية اقتباسهم ألواناً عديدة من الحضارتين الرومانية والفارسية . فقد كان التجار القرشيون يطلعون على معالم هاتين الحضارتين حينما يقصدون مدن الدولتين الرومانية والفارسية ويختلطون بأهلها . وقد نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من المصطلحات والكلمات الرومانية والفارسية . وأدى اطلاع القرشيين على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى دولتى الفرس والروم إلى نمو ثقافتهم وزيادة معلوماتهم ورقى أفكارهم . فكان معظم القرشيين يلمون بالقراءة والكتابة والحساب ، مما أتاح الفرصة لظهور شخصيات مستنيرة استطاعت أن تتولى أمور الدولة العربية الإسلامية التى بزغت بظهور الإسلام .

ـ ريش فى عهد عبد المطلب :

بلغت قريش فى عهد عبد المطلب شأواً بعيداً فى الحضارة لم تبلغه فى أى عهد من عهودها قبل الإسلام . وإن كان قصى بن كلاب قد وضع بذور هذه الحضارة ، فقد جنى حفيده عبد المطلب الثمار . ولذا لا عجب أن ارتفع شأنه وعظم أمره .

أصبحت الجزيرة العربية بسبب وجود مكة ، المدينة المقدسة ، مركز الحياة التجارية ، ولذا أثرت وأثرى أهلها وادخروا الأموال والمعادن النفيسة وعرفوا ألواناً من الترف وتقلبوا فى ألوان النعمة والرفاهية .

وقد روى الواقدى أن العرب استخرجوا الذهب من مناجم سليم وجلبوه إلى مكة حيث صنعوا منه أنواعاً عديدة من الحلى وادخروه سبائك ذهبية . وظهر من بين أهل مكة رجال حازوا ثروات كبيرة نتيجة اشتغالهم بالتجارة. وكانت المنازل فى مكة تقدر بالذهب وتراوح ثمن الدار بين مائتين وخمسمائة دينار . وامتلك المكيون الجياد الكريمة وتفاخروا بعددها ونسبها . واشتهر المكيون بالكرم والشهامة والمروءة وإكرام الضيوف ، وبدا هذا الكرم واضحاً زمن الحج ، فقد حرصوا على توفير وسائل الراحة للحجاج .

لم تقم فى عهد عبد المطلب حروب قبلية مثل التى كانت تحدث بين حين وحين فى عصور الجاهلية ، تلك الحروب التى كانت تثير النفور بين القبائل ، وتسفك الدماء ، وتشل نشاط العرب الاقتصادى ، وتهدد طرق القوافل . وحرص عبد المطلب على حل جميع المشاكل بالطرق السلمية ، فقد كانت تلك الحروب القبلية تهدد قوافل قريش ، وخاصة قوافل رحلتى الشتاء والصيف ، وهى تمثل أبرز موارد قريش . وكان

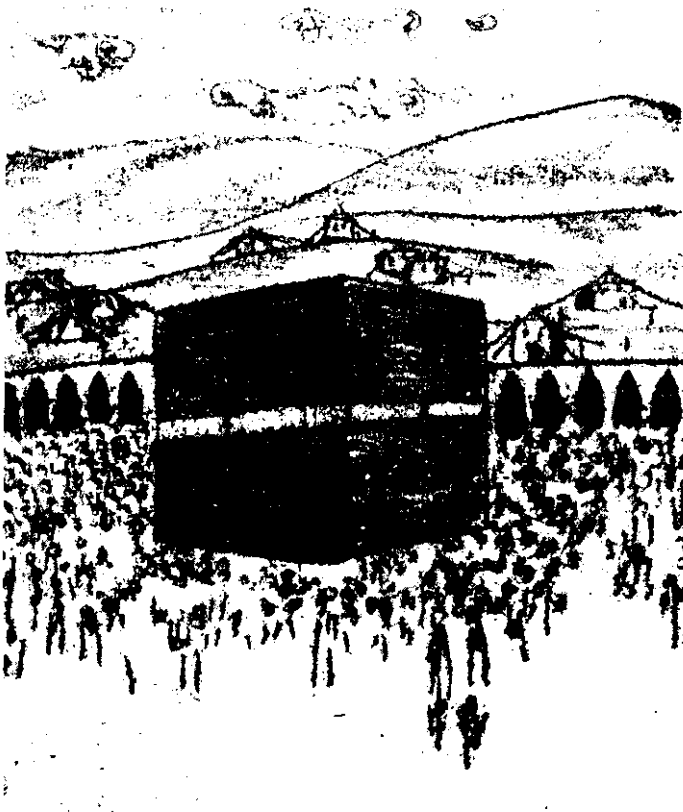

الكعبه

حفر زمزم

ـ المطلب يلجأ إلى التحكيم كلما بزغ نزاع بين القبائل . فقد آثر
جوء إلى التحكيم حين شب العداء بينه و بين ابن أخيه أمية بن عبد شمس
ين كشف عبد المطلب عن بئر زمزم وجد كثيراً من الحلى والنفائس
هبية ، ونازعته قريش فيما وجد ، وقام نزاع عنيف ، واختار عبد المطلب
ريق التحكيم لأنه طريق السلام . وحين قدم أبرهة على رأس جيش
بشى لغزو مكة وهدم الكعبة لجأ عبد المطلب إلى طريق المفاوضات
د تكون أجدى من السيف والحرب . ولذا كان عبد المطلب بحق رجل
لام يعمل على أن ترفرف راية الأمن والطمأنينة على مكة وبلاد
رب .

مالت قريش فى حياتها السياسية إلى الديمقراطية ، وكانت دار
ندوة تشبه البرلمانات المعاصرة ، فلم يكن عبد المطلب بصفته زعيماً
قريش ليستبد برأيه أو ينفذ أمره ، إلا بعد أن يعرض مهام الأمور على
جوه قريش فى دار الندوة . بل كان هؤلاء الوجوه يتدخلون فى زواج
تيات قريش ، فقد كان الزواج مسألة تهم القبيلة كلها وليست مسألة
شخصية أو فردية ، فقد كانت العرب تفخر بالأنساب ونقاء الدماء .
إذا قارنا ديموقراطية قريش فى عصر عبد المطلب بأرستقراطية الأمم
لعظمى المعاصرة للجاهلية ، وخاصة الفرس والرومان ، لأدركنا سبق
لعرب فى هذا المجال .

كانت مكة مركز الحياة التجارية والأدبية ببلاد الحجاز ، فكان
يقدم إليها العرب من كل مكان زمن الحج والمواسم العربية ، فيتناقلون
الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض ، ويتناشدون الأشعار الحماسية ،
ويتحدثون بشرف أصلهم وكرم محتدهم ، فتغرس كل هذه المظاهر
الاجتماعية والأدبية فى نفوس أطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة

والخصال الكريمة ، وتدفع بهم إلى جليل الأعمال وأسمى الغايات (١).

لم يكن معظم العرب يهتمون بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة ، و
يكن التعليم منتشراً فى الجزيرة العربية فى ذلك الحين ، كما كان العر
قد انشغلوا بالبحث عن موارد الحياة والسعى وراء الرزق عن التعليم
فقد كانت طبيعة بلاد العرب قاسية لا تجود بالخير العميم . ولكن الله
وجل قد عوضهم عن ذلك بذاكرة قوية ، وسعة أفق ، وصبر وقوة احتمال
وخيال فياض .

ولكن قبيلة قريش كانت أكثر هذه القبائل اهتماماً بالتعليم ، نتيج
الحضارة التى وصلت إليها ، ونمو ثرائها ، واحتكاكها بالدول الكبرى المتحض
إلى جانب حاجة القرشيين إلى التعليم ليقوموا بواجبهم التجارى . وقد كا
عبد المطلب ، مثله فى ذلك مثل معظم القرشيين ، يجيد القراءة والكتا
والحساب .

وصف الألوسى فى كتابه (بلوغ الأرب) العرب فقال عنهم
« والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاماً وأطلقهم وأوفرهم
أفهاماً ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة » . وتحد
ابن رشيق فى كتابه (العمدة) عن العرب فقال عنهم : « العرب أفضل
الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم » .

مهرت قريش فى عدة علوم ، فإلى جانب العلوم التجارية التى
تعلموها بالتجربة والخبرة والمران حتى حذقوها ، مهروا فى علم الأنوا
فعلموا مواعيد نزول الأمطار وهبوب العواصف والرياح ، كما أجادوا
علم الأثر ، وتتبعوا آثار الأقدام فى الصحراء ، وكانت تدلهم أحياناً على
مسالك الصحراء ودروبها . كما برعوا فى علم الأنساب ، وقد كانت

---

(١) تاريخ الإسلام ج ١ ص ٦٦ .

ش تدرك منزلتها بين القبائل العربية ولذا حفظوا أنسابهم واهتموا بتسلسلها
ز من القرشيين نسابون ذاع صيتهم بين العرب .

وعدّد الجاحظ صفات العرب وعدّد العلوم التى اشتغلوا بها فقال :
ان حداد ، ونفوس مفكرة ، فحين جلوا حدّهم ، ووجهوا قواهم إلى
الشعر وبلاغة المنطق ، وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر
قيافة الأثر ، وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال
تار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ
ل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وأحكام المناقب والمثالب ،
وا فى ذلك الغاية وحازوا كل أمنية ، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم
كبر ، وهممهم أرفع ، وهم من جميع الأمم أفخر ، ولأيامهم أذكر .

ولم يحل عدم انتشار التعليم فى بلاد العرب دون قيام نهضة أدبية فى هذا
صر الذى ندرسه . وليس أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر الذى
كون صورة صادقة للخلق القومى ، والذى يختلف تماماً عن الشعر فى
شعوب السامية الشمالية فى مادته وتركيبه . وتناول الشعر العربى القديم
حياة العرب بجميع جوانبها ، وطالما تغنى الشعر العربى بذكر تلك الحياة
وامتداحها وصبغها بجم الألوان من الأخيلة الشعرية ، كما لم ينس هذا
شعر نصيبه من الحكم الرائعة والأفكار القيمة . ولم تكن القافية خاصة
الشعر ، فقد تقفى العبارات التى لها علاقة ما بالأمور الدينية والأحاديث
ذات الخطر ، والتى ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة ، مثل تنبؤات
بعض المتنبئين وحكم الحكماء(١) .

ارتفع شأن قريش فى أرجاء الجزيرة العربية والدول المعاصرة فى عصر
عبد المطلب ، ونظر الجميع إليها بعين الحرمة والإجلال ، لشرف المحتد ،

(١) تاريخ الإسلام ج ١ ص ٦٨ .

وسموّ الفكر ، ولأنهم حماة الكعبة وسدنتها ، وعظم أمرها بعد إخفاق أبر
الحبشي فى غزو مكة وهدم الكعبة ، فارتفع شأن عبد المطلب وقبيل
قريش .

وقد ظهرت قريش بمظهر الحذق والفطنة فى التجارة ، والميل إلى الس
من أجل اشتغالهم بالتجارة ، فخلصوا بالتدريج من شوائب البداوة
وكفوا عن الرحيل لرعى الإبل وتربية الأنعام ، واستقروا وثبتوا ونظ
أسفارهم ، فى قوافل رتيبة على ظهور الإبل لجلب الخير إلى وطنهم .

أصبحت قريش رمزاً للسلام فى الجزيرة العربية ، والداعية إليه
فقد أدركوا أهمية تحقيق السلام لهم ، وما يعود به عليهم من فوائد اقتصاد
ومكاسب مادية .

ونعمت قريش بالهدوء العائلى ، فقد فطنوا إلى متعة السفر فى سبيل
الكسب ، ولذة الحنين إلى الوطن وهم بعداء ، وفرحة العودة إلى الدا
ولقاء الأسرة والأصحاب ، والتردد على مجالس السمر بعد طول الاغتراب
ورغبت قريش عن الغزو وإثارة الأحقاد بينهم وبين جيرانهم ، بل اتخذو
من هؤلاء الجيران أحلافاً وأعواناً وأضيافاً يرحلون إلى بلادهم فى أعمالهم
فيصلون إلى الشام شمالا وإلى اليمن جنوباً ، وإلى نجد وتهامه ونجران .

نسب المؤرخ الألمانى (فلهاوزن) ارتقاء مكة والحجاز إلى تفوق سكان
مكة من قريش ، ذلك أن نهضة أهل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات
الطيبة مع الساميين الشماليين فالمقطوع به أن التجارة التى امتدت إلى
سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت إليهم مؤثرات ومطامح جديدة
ولذا كان من بين الرجال الذين عرفوا القراءة والكتابة قبل الاسلام عدد
كبير نسبيا من أهل مكة .

ويرى (فلهاوزن) أن أهل مكة ، برغم افتقارهم إلى نظام حكومى ،

حلوا بروح تعاونية ، ونظر ثاقب فى الأمور التى تهم الصالح العام ، ذلك بصورة لا نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر من بلاد العرب . فبالرغم من أن كل أسرة كانت فى جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، فإنها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شىء ، أى أنه قام هناك سلطان يدل على وجود نظام صالح لإدارة مكة ، وهذا النظام كان حدثاً هاما فى بلاد العرب برغم بساطته وضيق حدوده .

٣ – زعيم مكة

مكة فى عهد عبد المطلب :

قامت مكة فى عصر إسماعيل، الجد الأكبر لعبد المطلب، وبدأت مكة تدخل من أبواب التاريخ وتتجلى عظمتها فى عهد قصى بن كلاب، وبلغت ذروة مجدها فى العصر الجاهلى فى عهد عبد المطلب، ثم تشهد مكة مشرق نور الهداية، فيولد فيها خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، محمد الهاشمى القرشى .

كان وادى مكة، قبل قيامها، موئلا لراحة القوافل . والراجح أن إسماعيل بن إبراهيم كان أول من اتخذها مقاماً وسكناً . وبعد تفجر بئر زمزم نزلت بهذا المكان قبيلة جرهم فقد أصبحت الحياة ممكنة . وشب إسماعيل فى هذه القبيلة وتعلم منهم اللغة العربية . ثم كان قيام إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة بأمر من الله عز وجل، فكتب المولى بذلك الخلود والمجد لمكة فقد أصبحت موطن الكعبة ومقصد الحجاج .

تولى عبد المطلب أهم مناصب القيادة والزعامة فى مكة . ولم تكن هذه المهام شخصية أو عائلية مجردة من ملابسات أخرى، كما أن البيوتات التى كان يقوم ممثلوها بها لم تضطلع بها ارتجالا وبقوتها الخاصة بها، بل إنها كانت مهام ذات صبغة أو سلطة رسمية ما اضطلعت بها هذه البيوتات .

كان أهل مكة على صلة وثيقة بالعالم المتمدين، وكانوا ملمين

وسائل الحكم فى الدول المعاصرة ، واقتبسوا منها ما يلائمهم . وتولى زعماء قريش السلطات الدينية والمدنية معاً . وتوارثوا هذه المناصب ، تبعاً لتقاليدهم الخاصة .

بدأ ظهور مكة كمدينة كبيرة عامرة فى عهد قصى بن كلاب ، وتحدث ابن هشام[1] عن مكة فى عهد قصى فقال : « فولى قصى البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتملك على أهل قومه وأهل مكة فملكوه إلا أنه أقرّ للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه ديناً فى نفسه لا ينبغى تغييره . فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها » .

كانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من أهمية ومقام ، فكان القرشيون أقرب أهل مكة إلى الكعبة . وكانت الجامعة المكية إيلافاً من الأسباط المجاورة ، كل سبط يقيم فى أحد الأحياء ، ولم يكن فى مكة سلطة عامة ، فكان الأسباط وشيوخها مصدر السلطات ، يحكمون بما يحقق المصالح العامة . وكان فى مكة جاليات أجنبية ، يهودية ونصرانية وسورية ومصرية وحبشية ورومية وفارسية ، وكان كثير منهم يشتغل بالصناعات ، وقدم كثير منهم بعد اضطهادهم فى بلادهم الأصلية ، وتعدد هذه الأجناس يبين صلات مكة بالبلاد المختلفة وامتلأت مكة بالمنازل الفخمة ، وكانت مكة تفخر على سائر مدن الحجاز بوجود الكعبة بها .

لم تكن مكة فى عهد عبد المطلب تستطيع أن تنافس مدن الجزيرة العربية فى خيراتها أو بذخها ، فقد كانت تقع فى أجدب بقاع بلاد العرب . ولكنها كانت تستطيع أن تفخر عليها بوجود الكعبة المقدسة فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ . ص ١٢٤ .

فى حماها . ولم يكن منظر مكة فى عهد عبد المطلب يختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية ولكنها تفوقها جميعها بأنها تحوى من البيوت الفخمة ما هو أكثر عدداً وأجمل شكلا .

من أعلى جبل أبى قبيس الذى يشرف على مكة من الشرق ، يبدو شكلها المستطيل من الشمال إلى الجنوب فى بطن واد ضيق . وعندما ينظر إليها المرء ، لأول وهلة ، فإنه لا يكاد يميزها من الأديم الذى تقوم عليه . إن الجبال الجرداء الصخرية التى تحيط بها لا يفصلها عنها بأية واحة ، فليس بينها وبين مكة أية بقعة خضراء ، وأن سطوح منازلها لتختلط بمنهار الصخور التى تحدرت على سفوح تلك الجبال .

أما بعد أن تراض العين شيئاً فشيئاً فإنها تميز البيوت والدور ، وتكتشف المداخل الخفية ، ويتنبه الإنسان بغتة لمنظر مفاجئ لمدينة كبيرة ، لم يكن يظن وجودها فى هذا المكان فإن العين تراها تكبر دون حدّ حتى ليكاد الإنسان يعزو اتساعها المفاجئ إلى سحر ساحر ، وتبدو الصخور بدورها وكأنها تحولت إلى منازل ، وتبدو الأكام أشبه بضواح واسعة لا يدرك الطرف لها نهاية[1] .

كان فى مكة فى عصر عبد المطلب جاليات أجنبية ، سورية ، ومصرية ، وحبشية ، ورومية وعراقية . وكان كثير منهم يمارس ألواناً من الأعمال الصناعية وكانوا نواة لطبقات من الصّناع المحليين . ولم يكن التكسب والعمل فى مجالات النشاط الاقتصادى خاصا بالرجل ، بل شاركت المرأة فيه . وتنوع جنسيات الأجانب ، أحراراً وأرقاء ، يدل على صلات مكة ببلاد الشام ، وفارس ومصر والحبشة والعراق . وكانت مكة موئلا لكل من يقع عليه اضطهاد دينى أو عنصرى فى هذه البلاد . ولقى المهاجرون

---

١) أتين دينيه : محمد ص ٥٦ .

من زعماء مكة ترحيباً وتشجيعاً (١).

وفى عصر عبد المطلب ، كان الأحابيش يكونون جانباً من مجتمع مكة . ويستعمل لفظ (الأحابيش) فى الدلالة على القوة العسكرية التى كانت قريش تستأجرها قبيل الإسلام للدفاع عن مكة أو قوافلها التجارية التى كانت تتردد بين الشام واليمن . ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التى كانت تنزل بظاهر مكة . وذكر المؤرخ (فلهاوزن) أن الأحابيش أحلاف قريش السياسيون .

هذ بينما يرى المستشرق (لامانس) أن الأحابيش كانوا كلهم ، أو جلهم على أقل تقدير ، زنوجاً من الحبشة . وقام المرحوم الأستاذ العبادى ببحث حول هؤلاء الأحابيش ، ثم أكد ثلاثة أمور : أولا : أن الأحابيش كانوا عرباً . ثانياً : أن القول بعروبتهم هو المتفق مع تاريخهم . ثالثاً : أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم فى حروبها لم يكونوا من الأحابيش فى شىء . ثم ذكر أنه كان بمكة قوة من الحبش حقا ، ولكن هذه القوة لم تكن من الأحابيش فى شىء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد تخدم أشراف مكة فى السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة اشتراه الأشراف بالمال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشى التى حاولت غزو مكة وهدم الكعبة فى عهد عبد المطلب (٢).

وفى عهد عبد المطلب ساد نظام الحمس . ولفظ الحمس جمع مفرده الأحمسى ، ومعناه ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطنى المقيم ـ والذى

---

(١) دروزه : عصر النبى ص ١٠٢ .
(٢) العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ص ١٤ .

ينتمى إلى الكعبة والمقام . فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنيها أشبه بحق « حرية المدينة » الذى يمنح فى بلاد الغرب للأضياف الشرفاء تمييزاً لهم واعترافاً بمكانتهم ، كما أنه إظهار لشرف الانتساب إلى البلد الذى يمنح أهلوه ذاك اللقب .

وعلامة الأحمسى أن لا يعظم شيئاً من الحل (أى الأرض التى وراء الحرم) كما يعظم الحرم ، فإذا فعل ذلك استخفت العرب بحرمته . فترك الحمس الوقوف على عرفة ، لأنه خارج عن الحرم والإفاضة منها مع إقرارهم بأنها من مشاعر الحج . ويرون لسائر العرب أن يقفوا على عرفة وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : « نحن أهل الحرم فلا ينبغى أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها » .

تحدث يا قوت الحموى (١) عن مذهب الحمس فقال : « وكان من سنة الحمس ألا يخرجوا أيام الموسم إلى عرفات ، إنما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لا يشتكون ولا يأقطون ، ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ، ولا يغزلون صوفاً ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وإنما يكتفون بالقباب الحمر فى الأشهر الحرم » .

وكانت فكرة الحمس صائبة لأنها ترمى إلى إعزاز جانب أهل الحرم ، وتضمن سلامة القاصدين إليهم وتحجر ما بين الأعداء ، وتشل أيدى المنتقمين والمتربصين ، فنشأ حق الالتجاء من حق الحمس (٢) .

كان أهل مكة على صلة وثيقة بالعالم المتمدين ، وكانوا واقفين على ما فى هذا العالم من أساليب للحكم والإدارة ، وقد اقتبس أهل مكة من ألوان الحضارة والترف وأشكال الحكومة ما يناسبهم ، وصبغوه بصبغة

---

١) معجم البلدان (طبعة وستنفلد) جـ ٤ ص ٦٢٠ .
٢) ثورة الإسلام ص ٨٢ .

خاصة ، تتلاءم مع بيئة مكة العربية . وقامت جمهورية مكة كدولة من دول المدن ، وهى تختلف عن الدول المعاصرة لها ، كما تختلف تماماً فى شكلها عن أشكال الحكم المختلفة التى عرفتها القبائل العربية البدوية . وكانت التجارة مصدراً لثراء مكة ، كما كانت الكعبة منبعاً للنفوذ السياسى والدينى .

عبد المطلب زعيم مكة :

ورث عبد المطلب الزعامة عن آبائه ، ولكنه أثبت جدارته ، وقام بواجبات الزعامة خير قيام ، وتحدث المؤرخون عن جوانب العظمة فى شخصية عبد المطلب ، كما اعترف معاصروه له بالزعامة والتفوق ونعمت مكة فى عهده بعصر من أزهى عصورها فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فى ميدان السياسة الداخلية ، نجح عبد المطلب فى أن يحفظ السلام فى مكة ، وعاشت القبائل جنباً إلى جنب فى هدوء وسلام . وكان الثراء الذى تدفق على قريش دافعاً لها على تجنب الحروب القبلية الصغيرة التى كانت مكة تشهدها من قبل من أجل موارد الحياة . واستكانت سائر القبائل لسيادة قريش وزعامة عن المطلب ، وأعجبتهم السياسة الرشيدة التى ساسهم عبد المطلب بها .

وفى ميدان السياسة الخارجية ، عمل عبد المطلب على توثيق صلاته الخارجية بالدولتين الفارسية والرومانية وإمارتى الحيرة والغساسنة ، وبلاد اليمن والحبشة . وظلت علاقة عبد المطلب بالدولة الحبشية طيبة فى أول الأمر ، حتى إن عبد المطلب أراد أن يكون النجاشى حكماً بينه وبين عمه نوفل حتى كان بناء أبرهة كنيسة صنعاء ورغبته فى تحويل الحجاج العرب إليها .

وفى مجال النشاط الاقتصادى ، أصبحت مكة بعد سقوط الدولة الحميرية فى بلاد اليمن مركز الحياة الاقتصادية فى بلاد العرب وملتقى قوافل دول العالم القديم . وازدحمت مكة بالتجار من مختلف الأجناس والأديان ، وشهدت مكة ألواناً مختلفة من الحضارات واللغات والثقافات .

ارتفع شأن عبد المطلب بعد إعادته حفر زمزم ، فقد كان أهل مكة يعانون طوال تاريخهم قلة موارد المياه ، فكانوا يجلبون المياه على ظهور الإبل من خارج مكة فيتجشمون النفقات والمشقات . حتى إذا كشف عبد المطلب عن بئر زمزم ، تدفق الماء وعاد بالخير العميم ، واعتبر أهل مكة الكشف عن زمزم حدثاً كبيراً .

أبدى عبد المطلب خلال غزو الجيش الحبشى لمكة ثباتاً وحزماً وهدوءاً ، ونجح فى تنظيم خروج أهل مكة إلى الجبال والشعاب والوديان ، ووحد عبد المطلب صفوفهم ، فتناسوا أمام العدو الأجنبى المشترك خلافاتهم القديمة ووقفوا وراء عبد المطلب . وأصبح العرب يؤرخون لأحداثهم بعام الفيل إحياء لذكرى انتصارهم وسلامة الكعبة ومكة من هذا الغزو الحبشى .

تولى عبد المطلب إطعام الحجاج وسقايتهم ، واشترك فى اجتماعات دار الندوة . وكان لمكة فى عهد عبد المطلب ميزانية ثابتة منظمة . وكان عبد المطلب يجمع بعض المال من أهل مكة لتوفير الطعام والماء للحجاج وشراء كسوة حريرية للكعبة .

حضارة مكة فى عهد عبد المطلب :

رفرفت راية العدالة فى سماء مكة فى عصر عبد المطلب ، فقد كان زعيماً رشيداً ، ورئيساً عادلا ، سخر جهوده لخدمة أهل مكة وحجاج الكعبة ، فيسر أمور الحج ، وبعث بقوافل مكة إلى كل مكان فى العالم القديم . ودافع عن مكة ضد هجوم الأحباش ، ونجح فى توحيد صفوف

كيين ضد العدو المشترك ولا شك أن هذه العدالة ، وهذا الاستقرار اخلى ، وهذه النهضة الاقتصادية ، قد أدت جميعاً إلى رخاء وافر ضارة زاهرة بدت معالمها فى صور مختلفة .

ينظر المؤرخون عادة إلى العصر الجاهلى على أنه عصر ظلمات وفوضى ذهبون إلى أن العربى فى الجاهلية لم يعرف حضارة ولم يتذوق ثقافة ، وجرده ؤرخون من الفنون والآداب . ولكن هؤلاء المؤرخين تجاهلوا تلك الدول ى قامت على أطراف الجزيرة العربية كدولة البابليين والآشوريين لآراميين والكنعانيين والمعينيين والسبئيين . وقد قدمت هذه الدول للإنسانية واناً من الحضارة .

كانت مكة موطن الكعبة ، ودار سلام ، يأمن فيها كل إنسان على فسه وحريته ومتاعه . وعمل أهل مكة على جذب الناس من كل مكان لى مكة ، للحج أو التجارة أو السياحة ، تحقيقاً لفائدة مادية تعود على هل مكة نتيجة كثرة الوافدين ، وكان المكيون يوفرون للقادمين الماء الطعام ، ويقيمون لهم الولائم ، ويذبحون الذبائح ، ويؤمنونهم على أرواحهم أموالهم .

تميز نظام مكة التجارى بأنه نظام محكم متقن ، فإن أهل مكة لم يكونوا ليؤمنون باكتناز الأموال واحتباسها . فإن المكى كان إذا ما زاد دخله من التجارة ، سعى إلى استغلال ماله فى مشاريع أخرى . وكان الشريك الموصى غير العامل يأخذ نصف الأرباح ، مما جعل كل فرد يساهم بأى مبلغ صغير فى التجارة ، وكان تنظيم القافلة ورحيل القوافل الأجنبية ووصولها من الأمور التى تهم أهل مكة جميعاً وكانت قوافل مكة ضخمة فى حجمها حيث بلغ عدد الإبل أحياناً ألفين وخمسمائة بعير ، وعدد الرجال ثلثمائة رجل[1] .

(١) حسين : الإدارة العربية ص ٢٩ .

تطورت مدينة مكة وصارت مدينة كبرى ، وخاصة بعد سقو
الدولة الحميرية فى بلاد اليمن ، وكان ذلك فى مطلع عهد عبد المطلب
وقد اكتسبت مكة هذه المكانة لا لوجود الكعبة بها ، أو لازدهار تجارتها
أو لموقعها الجغرافى فحسب ، وإنما ينسب ذلك الارتقاء كما يرى المؤر
(فلهاوزن) ، إلى تفوق سكان مكة من قريش ، الذين اقتبسوا أو
عديدة من الحضارة ، وأجادوا القراءة والكتابة ، وأصبح المكيون أرقى م
سائر البدو سكان الجزيرة العربية ، بل أرقى من أهل يثرب المشتغا
بالزراعة ، فقد عاش أهل مكة فى طور صناعى تجارى ، بينما كا
سكان يثرب لا يزالون يمرون بالطور الزراعى . وعرفت مكة ألواناً م
الخدمات البلدية والعناية بالمرافق العامة والطرق وتنظيم ملكية العقارات
وكان الموسرون يشعلون نيراناً عظيمة فوق تلال مكة تكون منارات ترش
القوافل أو الضالين .

كانت أشهر الحج أشهراً حرماً ، يحرم فيها القتال ، فكان العر
يغتنمون فرصة هذه الهدنة المقدسة ، فيشدون الرحال إلى مكة من كل مكا
فى الجزيرة العربية ، يشهدون الأسواق التى كانت تقام قبل الحج ، والتى كان
تمارس أغراضاً اقتصادية ومباريات أدبية . وقد اهتمت قريش وأهل مك
بسوق عكاظ الذى أصبح مسرحاً للأدب والشعر ، تتسابق فيه القبائ
إلى إظهار نوابغها من الشعراء والخطباء . وكان لعكاظ فى أيام الموسم رجا
يوازنه الحكومة للفصل فى ما قد يقع من الخلاف . ومتى فرغ الناس م
سوق عكاظ ، وقفوا فى عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الح
ويرجعون إلى مواطنهم .

ولما كانت مكة مركزاً للحج ، فإن كبار المواطنين فيها وضعوا ترتيبات
للخدمات البلدية فى بلدتهم ، فتطوع الناس لإمداد الحجاج بالمياه
ومهدت طرقات البلدة ومسالكها وعنى بكنسها ونظافتها ، وكانت معظ

لمرقات ضيقة ، وتعاون المكيون فى سبيل وقف السيول التى قد تنحدر
ى سفوح الجبال المحيطة بمكة . وكان الأرقاء يقومون بنقل المياه من الآبار
كثيرة الموجودة خارج مكة إلى الكعبة ليمدوا الحجاج بحاجتهم من
ياه .

واتخذ كل حىّ من أحياء مكة مستودعاً خاصًّا بها لنفاياتها. وكانت
لإضاءة ليلا نادرة عند العرب قبل الإسلام . فقد كان العرب يتناولون
ادة عشاءهم قبل أن يحلّ الظلام. وجاء فى أحد الأمثال العربية « خير
عشاء بواصره» أى ما يبصر فيه الطعام قبل هجوم الظلام . وكان الزيت
سحيحاً فى بلاد العرب ، فقد كان زيت الزيتون يستورد من الخارج .
لذا لم يستخدم عرب الجاهلية عامة المصابيح ، واقتصر استعمالها على
يوت أعيان مكة الذين ساعدهم الثراء على استيراد حاجاتهم من الزيت
فكانت تجلبه قوافل مكة العديدة . وكان كبار أهل مكة الموسرين
يضرمون نيراناً عالية فوق قمم التلال ، وفى الأماكن المرتفعة ، لتكون
منارات للسارين الذين ضلوا الطريق .

أصبحت مكة فى عصر عبد المطلب تشبه مدينة روما القديمة فى
شبه جزيرة إيطاليا . فقد أوت إليها بضع قبائل بعد أن تعبت من حياة
التنقل والارتحال ، وتطلعت إلى السكون والاستقرار ، فلجأت إلى تلك
البقعة المقدسة من الأرض التى كانت وسطاً بين الجدب والخصب ،
ووسطا بين السهل والوعر . وأقامت تلك القبائل فى مكة فصلى الربيع
والخريف ، أما الشتاء فكانت تمضيه فى جدة على شاطئ البحر الأحمر ،
أما الصيف فكانت تقضيه فى مدينة الطائف القريبة من مكة ، والتى
جادت الطبيعة عليها بهواء طيب ومحصولات أوفر ، لكثرة أمطارها
وارتفاع أرضها .

١) حسنى : الإدارة العربية ص ٣٢ .

اختارت هذه القبائل المقام فى مكة لأنها مدينة عريقة ، تقوم ف
الكعبة المقدسة ، كما أنها سوق تزخر بالبضائع التى تفد عليها من أرج
العالم القديم كالهند وفارس والصين والشام ومصر واليمن . وبدأ سراة ها
القبائل فى بناء بيوت ثابتة حول الكعبة من الحجارة والآجر ، وبدأوا يعتمدو
على التجارة فى مواردهم ، بدلا من الرعى أو الزراعة (١) .

وشهدت مكة نهضة أدبية ، وأنتجت رجالا نبغوا فى السياسة والقياد
والإدارة ، قاموا بدور كبير بعد ظهور الإسلام (٢) .

عبد المطلب أمير الحج :

كان عبد المطلب هو الزعيم الروحى ، كما كان الزعيم السياسى
وكانت قبيلة قريش قد نجحت فى انتزاع الأشراف على الكعبة من خزاعة .
وكان كل من يتولى هذه المناصب الدينية يصل إلى الرئاسة السياسية
وتوارث القرشيون هذا الشرف حتى تولى عبد المطلب فأصبح المشرف
على الكعبة ، كما كان زعيم مكة ، ورئيس قريش . وأصبح عبد المطلب
جديراً بأن يكون أمير الحج حين نجح فى صدّ جيش أبرهة الحبشى عن
مكة ، ونجت الكعبة من أخطار جسيمة كانت تتهددها .

أمر الله إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة ، وتعاون الأب والابن فى بنائها
ثم قاما بدعوة الناس إلى الحج إليها . روى الطبرى أن إبراهيم قال لابنه :
إسماعيل إن ربك قد أمرنى أن أبنى له بيتاً . فقال له إسماعيل : فأطع
ربك فيما أمرك . فقال إبراهيم : قد أمرك أن تعينى عليه . قال : إذاً
أفعل : «فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان :

---

(١) ثورة الإسلام ص ١٤١ .
(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن ج ١ ص ٤١ .

(ربنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم)[١].

ووصف المؤرخ المسعودى كيف بنى إبراهيم وإسماعيل الكعبة فقال : « وقد كان إبراهيم قد قدم إلى مكة ولإسماعيل ثلاثون سنة ، حين أمره الله تعالى ببناء البيت ، فبناه ، وكان إسماعيل يأتى بالحجر من عدة جبال ذكرت وطوله ثلاثون ذراعاً ، والحجر فيه وهو سبعة أذرع ، وعرض اثنان وعشرون ذراعاً ، وسمكه سبعة أذرع ، وجعل له باباً ، ولم يسقف ، ووضع الركبة موضعه ، وألصق المقام بالبيت ، وذلك قوله عز وجل (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) الآية ، وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج[٢] » .

خلد القرآن الكريم بناء الكعبة . فى سورة آل عمران : (إن أولَ بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركاً ، وهدى للعالمين فيه آيات بيناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنى عن العالمين) .

وقال الله عز وجل فى سورة البقرة : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ١٨٢ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩ .

وبعد بناء البيت ، عاد إبراهيم إلى بلاد الشام ، وترك وراءه ابنه إسماعيل ، وقد أصبح رجلا ، وخليفة أبيه فى أمانته وملته الحنيفية . ثم كان بناء مكة ، وقد قامت فى واد رملى شديد الضيق ، حتى ليبلغ أقصى اتساع فيه نحو سبعمائة خطوة ، وأما أضيق مكان فيه فلا يزيد عن مائة خطوة ، تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتى قدم وخمسمائة .

كانت مكة بما تحتويه من أماكن ، مدينة مقدسة منذ زمن طويل ، قبل ظهور الإسلام ، وكانت مقصد الحجاج من جميع أرجاء بلاد العرب وكان العرب يهتمون بالحج ، ولذا جعلوا بعض شهور السنة أشهراً حرماً تمتنع القبائل فيها عن القتال ، فتلقى أسلحتها جانباً ، وتنزع رؤوس حرابها ، ويتجوّل العرب فى الصحراوات المختلفة فى أمان واطمئنان . ويقصد الحجاج مكة ، فيطوفون بالكعبة سبع مرات ، ويلمسون ويقبلون الحجر الأسود ، ويشربون من ماء بئر زمزم الذى أعاد حفرها عبد المطلب ليعيدوا إلى ذاكرتهم ما حدث لجدّهم الأكبر إسماعيل. حتى إذا انتهوا من مناسك الحج الأخرى عادوا إلى بلادهم فى أمان ، وعادوا إلى أسلحتهم وحروبهم .

تولى عبد المطلب أكثر المسائل التى تهم الحجاج ، وهى توفير ما يحتاجونه من ماء وطعام وقد كان ذلك فى هذه الفترة من التاريخ من أشق الأمور وأصعبها ، فقد اشتهرت مكة بأنها فى واد ضيق غير ذى زرع . إذ حرمت من موارد المياه التى توفر لسكانها مياه الشرب ، كما حرمتها الطبيعة خصوبة الأرض ، فضلا عن إحاطة الجبال بها من جميع الجهات . وإن كان استيراد المواد التموينية من المناطق الخصبة أمراً ميسوراً ، إلاّ أن توفير الماء من أشق الأمور ، وعاش عبد المطلب يعمل حساباً لزمن الحج حتى وفقه الله إلى الكشف عن بئر زمزم ، بئر الأجداد ، فحل

بذلك مشكلة مكة الخالدة .

لم تكن هذه المهام الدينية الجليلة شخصية أو عائلية مجردة من ملابسات أخرى ، كما أن البيوتات التى كانت يقوم ممثلوها بها لم تضطلع بها ارتجالا وبقوتها الخاصة بها ، بل إنها كانت مهام ذات سلطة رسمية ما اضطلعت بها هذه البيوتات . وعلى هذا فإنه من الممكن أن نقول إن مهام (السقاية) أو (الرفادة) أو (السفارة) بين أهل مكة وغيرهم حين تطرأ أحداث تقتضى ذلك ، و (قيادة الجيش) فى الحرب ، و (عقد اللواء) وغير ذلك ، لم تكن هى الأخرى شخصية بل كانت مثلها ذات صفة أو سلطة رسمية ما اضطلعت بها البيوتات التى كان ممثلوها يقومون بها بهذه الصفة (١) .

أما السقاية ، فقد كان عبد المطلب يصنع شراباً فى الموسم للحجاج الذى يوافى مكة ، وجرت عادته على مزجه تارة بعسل وتارة بلبن ، وكان عبد المطلب ووجوه قريش يساهمون فى نفقات إعداد مثل هذا الشراب ، إلى جانب توفير المياه العادية اللازمة لضرورات الحياة اليومية من شرب واغتسال .

أما الرفادة ، فهى سنة استنها قصى بن كلاب ، جدّ عبد المطلب ، وتوارثها أبناؤه من بعده ، فأصبحت سنة تقليدية لا يتركونها . وقد عرّف ابن هشام (٢) الرفادة فقال : « وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب ، فيصنع به طعاماً للحجاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد . وذلك أن قصيا فرضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزائر بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ،

---

١) دروزه : عصر النبى ص ٢١٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٣٠ .

فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى » .

قام الحج بدور كبير فى حياة العرب الاجتماعية وكيانهم الاجتماعى . فقد كان الحج قبل الإسلام يشمل العرب جميعهم على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم ، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الاجتماعية ، حيث كانوا يفدون إلى مكة من كل صوب وحدب . فيلتقون فى موسم الحج وأسواقه ، وفى ظل أشهره الحرم ، ويجتمعون ويتعارفون ويتبايعون ويتشاورون ، ويتناشدون الأشعار ، ويعقدون المجالس للمفاخرات ، وحل المشاكل ، ويخطب فيهم مصاقع الخطباء . وقد سنحت للعرب نتيجة الحج فرصة لحركة أو نهضة قومية وسياسية واجتماعية وفكرية وأدبية .

وكان عبد المطلب وغيره من وجوه قريش يشعرون بما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج كما كانوا يدركون مركز بلدهم وما أنعم الله عليه من كرامتها وقدسيتها وجعلها مثابة للناس وأمناً ، لا يسفك فيها دم ولا يثار فيها نزاع وقتال ، فكانوا يتضامنون فى القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب وإكرام باعتبار أنهم ضيوف بيت الله الذى بلدتهم ، والذى هم سدنته .

أصبحت مكة مركز الحياة الدينية والاجتماعية فى الحجاز خاصة وفى الجزيرة العربية عامة ، وكان حج العرب إلى مكة وكعبتها يؤدى إلى حركة تجارية عظيمة وحركة أدبية كبيرة . وكان امتناع الناس فى هذه الأشهر الحرم عن إيذاء بعضهم بعضاً ، يساعد على إقبال العرب على هذه المواسم ، التى كانت تحدث نشاطاً فكريا وتجاريا ودينيا عظيماً ، رددت آثاره الأخبار والقصائد والنوادر الأدبية التى حملها لنا التاريخ عن شعراء

خطباء الجاهلية فى هذه الأسواق التجارية الأدبية التى كانت تقام فى
كاظ والمربد .

لم يكن الذين يشهدون موسم الحج ويؤدون مناسكه ويفدون إلى أسواقه
اصرين على أهل منطقة مكة أو بلاد الحجاز ، بل قدم حجاج من
جاء الجزيرة العربية المختلفة كاليمن ونجد . وقدم يهود ونصارى . وحنفاء
وحدون ، منهم من قدم للتجارة ، أو للتبشير بدينه ، أو للمفاخرة والخطابة
إنشاد الشعر . ومنهم من أتى من أجل حل مشاكل لا يمكن حلها إلا فى
ثل ظروف الحج وموسمه وأمنه . ولكن معظمهم قد قدم للحج وزيارة
كعبة .

خصص العرب ثلاثة شهور للحج وجعلوها حرماً ، برغم أن موسم
لحج وأسواقه لم تكن تستغرق إلا شهراً تقريباً ، وهذا نتيجة المسافات
شاسعة التى يضطر معظم الحجاج إلى قطعها ذهاباً وإياباً بين بلادهم
بعيدة ومكة ، وكانت المواصلات والطرق حينئذ بدائية فيحتاج الحجاج
ى وقت طويل ليقطعوها (١) .

كانت تقاليد تقديم الهدى والقرابين تساعد عبد المطلب على حل
شكلة (الرفادة) وإطعام الحجاج . وكثيراً ما قدم عبدالمطلب بعض إبله
دياً للكعبة ، وقد حفظت المصادر التاريخية أخبار ذلك . فقد كان جيش
رهة الحبشى قد استولى على مائتين من إبل عبد المطلب حين قدم إلى
كة غازياً راغباً فى هدم الكعبة ، حتى إذا استرد عبد المطلب إبله من
رهة قدمها للكعبة هدياً .

وإذا لاحظنا أن الذين يهدون الهدى هم الأغنياء والقادرون ، وأن
ثيراً من الحجاج من الفقراء الذين قدموا من أماكن نائية متحملين

---

(١) دروزه : عصر النبى ص ١٨٩ .

مشقات السفر والقيظ والحرمان ، أدركنا أهمية تقليد تقديم الهدى خلال موسم الحج . وبلغ من احترام أهل مكة لهدى الكعبة أن بعض الحجاج كان يترك هديه سائماً بعد أن يقلده فيتحاماه الناس ولا يتعرض له أحد بسوء .

والهدى هو الحيوان الذى يسوقه الحاج ليذبحه بعد أداء مناسك قربان شكر لله . وقد كان من عادة الحجاج العرب تقليد الهدى أى وضع قلادة من سيور الجلد أو ألياف الشجر فى عنقه إعلاناً بأنه هدى فيصبح محرماً مرعياً . وهذا هو القصد من تعبير (القلائد) . ولعل النهى عن إحلالها هو النهى عن أخذ القلائد من أعناق الهدى لما فى ذلك من عدوان على حرمة أو تعريض له للعدوان والنهب .

ويطلق اسم (الهدى) على الحيوان الذى يخصص للقربان ، فإذا كان الحيوان من البقر والإبل سمى بدناً . ولعل كلمة (الهدى) مشتقة من الإهداء على اعتبار أن القربان هدية من الحجاج إلى الله أو إلى الكعبة . والمسلمون يسمون قرابينهم اليوم باسم الأضاحى أو الأضحية .

كما كان من عادة الحجاج فى عصر عبد المطلب أن يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدى ظنا منهم أن فى هذا تقرباً إلى رب البيت ، وإلى ذلك أشارت إحدى آيات سورة الحج على ما ذكره بعض المفسرين والرواة حيث نبهت إلى أن الله لا يناله شىء من لحوم الهدى ولا دمائه ، وإنما الذى يريده من الناس التقوى والإخلاص ، وبذلك أبطلت هذه العادة . وقد كانوا يتأثمون من أكل لحوم هديهم ، ويتركونها للفقراء والمساكين والسباع والجوارح ، فأباح القرآن لأصحاب الهدى أن يأكلوا منه إذا شاءوا ، وأن يطعموا البائس والفقير والمحتاج ، سألوا أو لم يسألوا[1] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٢ .

٤ ــ حفر زمزم

بئر زمزم ومشكلة الماء فى مكة :

مما اشتهر به عبد المطلب فى التاريخ أنه قام بإعادة حفر بئر زمزم ، حتى ما زالت قائمة حتى الآن ، يتبرك المسلمون بها . وكان لإعادة حفر هذه البئر دوىّ كبير فى أرجاء الجزيرة العربية .

كانت مكة تعانى دائماً من الجدب وقلة المياه ، وكان يمر بها أحياناً مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أو أكثر . وفى بعض الأحيان كان ينزل المطر على شكل سيول لفترة قصيرة . وجاء وصف مكة فى القرآن الكريم على لسان إبراهيم : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » . ويروى المؤرخون أنه أطلق على مكة هذا الاسم لقلة مائها ، فقد كان العرب يقولون أمتك الفصيل ضرع أمه أى امتصه حتى لم يبق فيها شيئاً .

اتجه إبراهيم بهاجر وإسماعيل نحو الجنوب حتى بلغوا الوادى الذى تقوم مكة اليوم به . وكان هذا الوادى مضرب خيام القوافل التى ترحل بين الشام واليمن . وتركهما إبراهيم فى هذا المكان بعد أن ترك لهما بعض التمر والقليل من الماء . ثم نفذ الطعام والماء ، وأخذت هاجر تبحث عما يحفظ حياة وليدها إسماعيل ، وأخذت تسعى بين الصفا والمروة ، وأشفق المولى عز وجل عليهما ففجر بئر زمزم . روى ابن هشام[1] القصة فقال :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١١١ .

« إن هاجر أخذت تبحث عن الماء فلم تجده ، فقامت إلى الصفا تد
الله وتستغيثه لإسماعيل، ثم أتت المروة ففعلت مثل ذلك . وبعث الله تعا
جبريل عليه السلام . فهمز له بعقبه فى الأرض ، فظهر الماء ، وسمع
أمه صوت السباع ، فخافتها عليه ، فجاءت تشتد نحوه، فوجدته يفحص
بيده عن الماء تحت خده ويشرب ، فجعلته حسيا » . وجذب ظهو
الماء قبيلة جرهم اليمنية فأقامت فى هذا المكان ، وشب إسماعيل فى ه
القبيلة وتزوج من فتياتها .

وتحدث ياقوت الحموى [1] عن مصير زمزم فقال : « وتطاول
الأيام على ذلك حتى غورت تلك السيول وعفتها الأمطار فلم يبق لزم
أثر يعرف» . أى أن ياقوت يرى أن العوامل الجغرافية قد أزالت م
زمزم . أما المؤرخون فينسبون اختفاء زمزم إلى أسباب تاريخية . فيرو
أن سيداً من سادات مكة ، وهو مضاض بن عمرو الجرهمى ، ك
يعيش قبل عبد المطلب بنحو ثلثمائة سنة ، كان قد اشتبك فى حرب
أعدائه انتهت بهزيمته، وأدرك أن أعداءه لن يلبثوا أن يخرجونه من مكة
ورأى مضاض أن يحرمهم من مورد المياه الرئيسى فى مكة ، فأخذ
بئر زمزم بعض نفائسه وذهبه ، ثم ردمها . وأخفى علاماتها ، وساع
الطبيعة على إحكام إخفائها ، فتكاثرت الرمال عليها حتى اندثرت ،
هرب مضاض إلى بلاد اليمن ، واضطر أهل مكة إلى البحث عن م
جديدة للمياه فحفروا آباراً أخرى معظمها خارج مكة .

أقبل أهل مكة على حفر الآبار ، إذ أن المياه الجوفية هى المو
الوحيد للماء ، فقد حرمتهم الطبيعة من الأمطار الغزيرة المنتظمة ،
حرمت مكة من الأنهار الجارية والمياه المتدفقة .

---

(١) معجم البلدان جـ ١٠ ص ١٤٩ .

حفرت كل بطن من بطون قريش فى رباعهم بئراً، فاحتفر بنو تميم بن مرة الجفر ، وهى بئر مرة بن كعب ، وحفر عبد شمس بن عبد مناف بئراً أخرى وسماها (الطوى) وحفر هاشم بن عبد مناف بئر (بذر) وأباح للناس الاستفادة من مائها. وحفر هاشم أيضاً بئر (سجله) وظلت ملكاً لبنى هاشم حتى أعاد عبد المطلب حفر بئر زمزم فمنح هذه البئر إلى بنى نوفل بن عبد مناف . وحفر أمية بن عبد شمس بئر (الحفر) واحتكر الاستفادة من مائها لنفسه . وحفرت بنو عبد الدار بئر (أم أحراد) ، كما حفرت بنو جمح بئر (السنبلة) وحفرت بنو سهم بئر (الغمر) . كما كان هناك عدة آبار فى خارج مكة يرجع تاريخها إلى عهود زعماء قريش الأوائل ، منذ عهد مرة بن كعب ، وكلاب بن مرة ، أشهرها بئر (رم) وقد حفرها مرة بن كعب بن لؤى ، وبئر (ضم) وقد حفرها بنو كلاب بن مرة[1].

كان قصى بن كلاب ، جد عبد المطلب الأكبر ، يسقى الحجاج فى حياض من أدم ، وكان ينقل الماء من آبار خارجة من مكة ، منها بئر ميمون الحضرمى ، ثم احتفر قصى (العجول) فى دار أم هانئ بنت أبى طالب ، وهى أول سقاية احتفرت بمكة ، وكانت العرب إذا استقوا منها ارتجزوا فقالوا :

نروى على العجول ثم ننطلق إن قصيا قد وفى وقد صدق

فلم تزل العجول قائمة طوال حياة قصى وبعد موته ، حتى كبر عبد مناف بن قصى فسقط فيها رجل من بنى جعيل ، فعطلوا العجيل واندفنت ، واحتفرت كل قبيلة بئراً .

اختلف المؤرخون فى سبب تسمية بئر زمزم بهذا الاسم . فيذكر

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٨ — ١٥٠ .

المسعودى : سميت زمزم لأن الفرس كانت تحج إليها فى الزمن الأول ، فزمزمت عليها ، والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء ، وقيل بل سميت زمزم لأنها زمت بالتراب لئلا يأخذ الماء يميناً وشمالا . ويروى المسعودى أيضاً أن الفرس كانت تعتقد أنها من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً لجدّهم إبراهيم وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك . ويذكر ياقوت الحموى (١) أن زمزم سميت بهذا الاسم لكثرة مائها فيقال ماء زمزم وزمازم . ويروى أن البعض يرى أنها سميت زمزم لزمزمة جبرائيل عليه السلام وكلامه عليها. ولهذه البئر أسماء أخرى منها زَمّ وزمزْم ، وزُمازم وركضة جبرائيل وهزمة جبرائيل وهزمة الملك ، والركضة والهزمة هما المنخفض من الأرض .

الرؤيا :

تولى عبد المطلب السقاية ، فكان ينقل الماء من الآبار خارج مكة إلى أحواض إلى جوار الكعبة ، وكان عبد المطلب يلقى الكثير من المشقة ، فلم يكن له من الأولاد سوى الحارث . ثم حدث أن شهدت مكة عام جدب ، امتنع فيه سقوط الأمطار ، وكادت تجف مياه الآبار ، وبدت فى الأفق مشكلة كبرى ، فقد قدم آلاف الحجاج ، وأخذ عبد المطلب يفكر فى وسيلة لتوفير الماء لهم .

وانتهى موسم الحج ، وعاد القرشيون إلى مجتمعاتهم . وفى ليلة من ليالى الربيع . اجتمعوا فى دار عبد المطلب يتسامرون ، ثم ساقهم الكلام

---

(١) معجم البلدان جـ ١٠ ص ١٤٨ – ١٤٩ .

لى ما عاناه عبد المطلب لتوفير الماء للحجاج ، وحمدوا الله أن حفظوا
مة قريش بين العرب ، وتذاكروا بئر زمزم وتمنوا لو توصّلوا إلى مكانها.
روى أمية بن عبد شمس ، وكان عالماً بالأحداث الماضية ، قصة مضاض
بن عمرو الجرهمى وإخفائه معالم زمزم . وتمنى عبد المطلب فى نفسه
و نجح فى الكشف عن مكان زمزم فتعود مياهها إلى التدفق من جديد
يرتاح من مشكلة المياه فى مكة .

يتحدث بعض المؤرخين القدماء عن الرؤيا التى رآها وأمر فيها بحفر
زمزم . فيذكر ابن هشام[١] « ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم فى
الحجر إذ أتى فأمر بحفر زمزم » ، وينسب ابن هشام قصة الرؤيا إلى
المؤرخ ابن إسحق : « وكان أول ما ابتدئ به عبد المطلب من حفرها ،
كما حدثنى يزيد بن أبى حبيب المصرى ، عن مرثد بن عبد الله اليزنى ،
عن عبد الله بن زرير الغافقى : أنه سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه ،
يحدّث حديث زمزم ، حين أمر عبد المطب بحفرها . . . » .

روى عبد المطلب قصة رؤياه فقال : « إنى لنائم فى الحجر[٢] إذ
أتانى آت فقال : احفر طيبة[٣]. قال : قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم
ذهب عنى . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى ، فنمت فيه ، فجاءنى
فقال : احفر برّة[٤]. قال فقلت : وما برّة ؟ قال : ثم ذهب عنى ،
فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر
المضنونة[٥]. قال : ثم ذهب عنى . فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٢ .
(٢) الحجر : فناء الكعبة .
(٣) قيل لزمزم طيبة لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم .
(٤) لأنها تفيض على الأبرار .
(٥) لأنها تضن على غير المؤمنين .

فنمت فيه ، فجاءنى ، فقال : احفر زمزم . قال : قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف (١) أبداً ولا تذم(٢) ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل (٣) » .

وهكذا حددت الرؤية مكان بئر زمزم ، فقالت إنها بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل . أما الفرث والدم . فقد وصفه المؤرخون بأن ماءها طعام وشفاء سقم ، أما عن الغراب الأعصم ففيه إشارة إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليخربن الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » . وأما قرية النمل ، ففيها من المشاكلة أيضاً والمناسبة : أن زمزم هى عين مكة التى يردها الحجيج والعمار من كل جانب ، فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك ، وهى لا تحرث ولا تزرع وقرية النمل كذلك لا تحرث ولا تبذر ، وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب .

هذه هى رواية ابن هشام وهو من الثقاة ، وقد ردد خبر هذه الرؤيا كثير من المؤرخين والكتاب ، قدامى ومحدثون ، ومن المؤرخين من لم يشر إلى هذه الرؤيا ، ومن هؤلاء المسعودى إذ أغفل فى كتابه (مروج الذهب) قصة الرؤيا واكتفى بأن قال : « وقد كان حفر بئر زمزم ، وكانت مطوية ، وذلك فى ملك كسرى قباذ ، فاستخرج منها غزالتى ذهب عليهما الدر والجوهر ، وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف قلعية ، وسبعة أدرع سوابغ ، فضرب من الأسياف بابا للكعبة ، وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب فى الباب وجعل الأخرى فى الكعبة (٤) » .

---

(١) لا تفرغ .
(٢) لا يقل ماؤها .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٣ .
(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٧ .

صوّر الأديب الكبير الدكتور طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) رؤيا عبد المطلب فى صورة أدبية رائعة ، فقص الأديب قصة ذلك الهاتف الذى رآه عبد المطلب فى مضجعه ثلاث ليال يأمره بحفر طيبة أو برة أو المضنونة . وقد أصبح عبد المطلب بعد رؤياه فى حيرة وقلق ، حتى أنه فكر فى أن يقص أمره على الكاهن ، ولكن خشى أن يظن به الكاهن الظنون ، وتشيع المقالة فيسخر منه حرب بن أمية ولداته ، ويتندر عليه فتيان مخزوم . وظن عبد المطلب أنه ربما يكون هذا الهاتف ظلّ ميت من موتى قريش قد أنسيه قومه ، فهم لا يزورونه ولا يقربون إليه . أو لعله شيطان من هذه الشياطين التى تلح على الإنس فتفرض عليهم الطاعة ، ولعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالتضحية والقربان .

وفضّل عبد المطلب أن يفضى بحيرته إلى زوجته الحبيبة سمراء طالباً مشورتها ، فقالت له : هوّن عليك ، ولا تغل فى الخوف ولا تسرف فى الاشفاق ، ما أكثر ما يلمّ هذا الطيف بالناس عندنا فى البادية ، فلا يحفلون ولا يأبهون ، ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة فى غير توسط للكاهن ولا توسل به ! قم فضحّ لهم ، وقرب إليهم ، فسيرضون وسيرضى الفقراء والجائعون ، وسيغيظ ذلك قوماً من قريش .

وقضت مكة يوماً دامياً سميناً ، كثر فيه الطعام ، وكثر فيه الشراب ، ورضيت فيه الأصنام ، وأوى عبد المطلب إلى مضجعه راضياً مسروراً ، فجاءه الهاتف مرة أخرى ، فقال : احفر زمزم . فتساءل عبد المطلب : وما زمزم ؟ قال لا تنزح ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم . فقال عبد المطلب : الآن قد وعيت .

عودة زمزم :

حدّدت الرؤيا لعبد المطلب المكان الذى إذا حفر فيه كشف عن بئر زمزم ، التى تدفقت فى عهد جده الأكبر إسماعيل بن إبراهيم ، والتى أصبحت مكة فى أشد الحاجة لإحيائها من جديد لتسد النقص الشديد فى المياه الذى يعانى المكيون منه وخاصة زمن الحج . وكان هذا المكان الذى حدّده الهاتف يقع بين الوثنين أساف ونائله . وبقى على عبد المطلب أن يلبى نداء الهاتف .

يروى ابن هشام[1] أن عبد المطلب خرج للبحث عن مكان بئر زمزم ، وأنه لم يصحب معه للقيام بهذا العمل الجثمانى الشاق غير ابنه الحارث ، ويعلل ابن هشام ذلك بأنه « ليس له يومئذ ولد غيره ».

ولكننا لا نعتقد أنه اكتفى بهذا الغلام وهو مقبل على عمل خطير يحتاج إلى بذل جهد كبير ، من حفر إلى إزالة الرمال ، لأنه لم يرزق سوى هذا الغلام . فقد كان عبد المطلب زعيم مكة ورئيس قريش ، ويستطيع أن يحشد العشرات بل المئات من أبناء قريش أو مكة للبحث عن بئر جدهم إسماعيل ، وخاصة أن مشكلة قلة المياه مشكلة عامة تمس حياتهم جميعاً .

ربما ظن عبد المطلب أن هذا الهاتف من قبيل أضغاث الأحلام ، أو هو من الشياطين العابثين أو من الأرواح الشريرة ، فخشى عبد المطلب أن يقع فى مكيدة أو خداع ، ورأى أن ينفرد هو وولده بالبحث عن بئر زمزم ، حتى إذا أخفقا احتفظا بسرّهما دون أن يعلم أعداؤهما بالأمر

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٣ .

فيصبحا موضع شماتتهم وسخريتهم .

وقد يكون عبد المطلب واثقاً من التوفيق ، مطمئنا إلى أنه سيكتشف بئر الأجداد التى أصبحت مكة فى مسيس الحاجة إليها ، وأن هذا الكشف سيكون له دوى كبير ، ورنة فرح فى قلوب المكيين ، فرأى عبد المطلب أن ينفرد هو وابنه بالمجد والسؤدد .

خرج عبد المطلب وابنه الحارث ، وقد حملا معولا ومجرفة يجرفون بها الرمال ، ومكتلا وهو زنبيل من خوص ، ومسحاة وهى مجرفة يجرفون بها الرمال ، وهى الأدوات التى سيحتاجانها للحفر وإزالة الرمال المتراكمة . وقصدا من فورهما إلى المكان الذى حدده الهاتف ، فوجدا قرية النمل ، ووجدا الغراب ينقر عندها بين الوثنين إساف ونائله ، اللذين كانت قريش تنحر عندهما .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد رآهما بعض القرشيين يحفران الأرض بين وثنيهما المقدّسين ، ولم يدركوا حقيقة الدافع لعبد المطلب وابنه على الحفر ، وربما ظنوا أنهما يريدان انتهاك حرمة هذين الوثنين ، فقالوا لعبد المطلب : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما فقال عبد المطلب لابنه الحارث : دُد عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما أمرت به . ولما رأوا إصراره على المضى فيما بدأ فيه خلوا بينه وبين الحفر ، وكفوا عنه .

روى ابن هشام(١) أن عبد المطلب لم يحفر إلاّ يسيراً ، حتى بدا له الطىّ ، فكبّر وأدرك القرشيون أن عبد المطلب قد صُدق ، ومضى عبد المطلب فى الحفر ، وإذ به يجد ما لم يكن يتوقعه ، فقد عثر على غزالين من ذهب ، كما وجد أسيافاً وأدراعاً ثمينة ، وهذه النفائس كانت لمضاض الجرهمى ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٦ .

وقد طمرها فى بئر زمزم قبل هربه من وجه أعدائه إلى اليمن ، حتى لا يعثرون عليها ، وكان قد عجز أن يحملها معه إلى منفاه ، وتراكمت الرمال مع السنون لتخفى هذه الذخائر عن العيون والأيدى .

ولكن عثور عبد المطلب على هذه النفائس خلق له إشكالاً لم يكن فى الحسبان ، فقد نازعه القرشيون فيما وجد وقالوا له : لنا معك فى هذا شرك وحق . قال : لا ، ولكن هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم ، نضرب عليها بالقداح . قالوا : كيف تصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قدحين ، ولكم قدحين ، فمن خرج له قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له . قالوا : أنصفت فجعل عبد المطلب قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبد المطلب . وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطوا القداح إلى صاحب القداح الذى يضرب بها عند هبل . وكان هبل هذا صنماً فى جوف الكعبة ، وهو من أعظم أصنامهم . وقام عبد المطلب يدعو الله عز جل ، فضرب صاحب القداح ، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد لمطلب ، وتخلف قدحا قريش . فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين الذهبين .

ويروى ابن هشام[1] أيضاً رواية أخرى حول موقف القرشيين من العثور على هذه الذخائر الذهبية فى بئر زمزم . فروى أن القرشيين قد أرادوا أن يشاركوه فيما عثر عليه من نفائس فقالوا : يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقا فأشركنا معك فيها قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم . فقالوا له : فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . فاجعلوا بينى وبينكم من شئتم

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٤ .

حملة الفيل

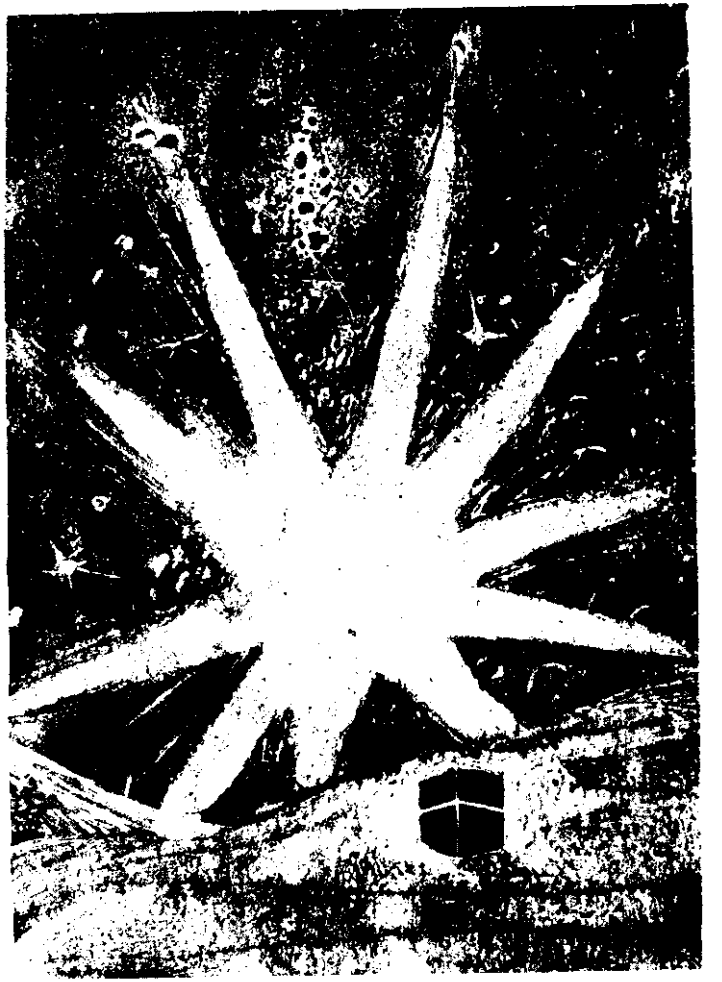

مولد الهدى

اكمكم إليه ؟ قالوا : كاهنة بنى سعد هذيم . ووافق عبد المطلب على راحهم ، وكانت هذه الكاهنة تسكن عند مشارف الشام .

ركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه ، من بنى عبد مناف ، ركب من كل بطن من بطون قريش نفر ، فخرجوا حتى إذا كانوا بعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه ، لمئوا حتى أيقنوا بالهلاك ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فأبوا عليهم وقالوا : إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم ، وما يتخوف على نفسه وأصحابه ل : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت . قال : نى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه ، بما بكم الآن من القوة كلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه ، حتى يكون آخركم جلا واحداً ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً . قالوا : م ما أمرت به . فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون لموت عطشاً . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا كذا للموت ، لا نضرب فى الأرض ، ولا نبتغى لأنفسنا ، لعجز ، فعسى لله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا .

بدأ عبد المطلب وصحبه يستعدون للرحيل ، وأخذ من معهم من بطون ريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، وتقدم عبد المطلب إلى راحلة فركبها ، فلما انبعثت به ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القرشيين فقال : هلم إلى الماء ، فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا . وأقبل القرشيون على الماء ينهلون منه وما لبثوا أن قالوا لعبد المطلب : قد والله قضى علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك فى زمزم أبداً ، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاوة لهو الذى سقاك زمزم

فارجع إلى سقايتك رشداً . وعاد عبد المطلب ومن معه أدراجهم إلى
وقد استغنوا عن قصد الكاهن وخلوا بين عبد المطلب وبئر .
إسماعيل .

نتائج الكشف عن زمزم :

وهكذا تدفق الماء من جديد من بئر زمزم ، تروى الزرع وتنشر الـ
وتكسو الأرض خضرة رائعة ، واطمأن عبد المطلب إلى توفير المياه للحج
وارتفع ذكره بين العرب جميعاً .

أصبحت الأسياف والأدراع والغزالتان حلية للبيت الحرام . ولـ
بريق الذهب جعل بعض اللصوص يتسللون فى جنح الظلام إلى الك
وجردوها مما تتحلى به من ذهب وأسياف ودروع ولكن زمزم لا زال
قائمة تفيض بالخير العميم .

تعجب (مرجوليوث) فى كتابه (تاريخ محمد) من تجشم عبدالمطل
هذه المتاعب والمشاق ليوفر للحجاج حاجتهم من الماء ، وظن أن عبد المطل
كان يبيع هذا الماء للحجاج فيربح من بيعه ربحاً طائلا . وقد رد عليه أح
الكتاب[1] المحدثين رداً مقنعاً فقال : وغنى عن البيان أن مرجوليوث يقيس
على بعض بلاد أوربا الغربية حيث لا يقام للكرم وزن إلا نادراً
فلا يتصور رجلا يضيع ماله على الجود وصنع الخير ، لأنه فى معظم بلا
أوربا لا يستطيع الرجل أن يشرب جرعة ماء بلا مقابل . دع عنـ
الطعام ، فكيف يصح فى ذهن مرجوليوث وأمثاله أن عبد المطلب ينقل
الماء ويضع فيه التمر والزبيب للحجاج تقرباً منه لله أو خدمة عامة للجماع

---

(١) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ٢٥٦ .

ة ، ولكن الشرق كريم ، والماء ملك مشاع بين القبائل .

تحدث ابن هشام[١] عن نتائج الكشف عن زمزم فقال : «فعفت[٢] م على البئار التى كانت قبلها يستقى عليها الحاج ، وانصرف الناس ، لمكانها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرت بها بنو عبد مناف ، يفخر على قريش بماولوا عليها السقاية والرفادة ، وما أقاموا للناس ذلك ، وبزمزم حين ظهرت لهم ، وإنما كان بنو عبد مناف أهل بيت د ، شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل » .

مر عبد المطلب خلال حفر زمزم بتجربة خطيرة ، واستعاد الأحداث ن مر بها ، فتذكر كيف كان ولده الوحيد يعانى من الحفر وهو لا يزال دثاً ، وتذكر موقف القرشيين منه وكيف تجرأوا عليه فطلبوا أن يشاركوه عثر عليه من نفائس . شعر عبد المطلب بضعفه وقلة أهله ، وتحركت نفسه رغبة جديدة هى الإكثار من النسل . تقدم عبد المطلب إلى عمر ن عائذ المخزومى فخطب إليه ابنته فاطمة فبنى بها ورزقها الله منها شاء من الأولاد .

كبرت أسرة عبد المطلب منذ صار له من الأولاد الحارث ، والزبير ، جل ، وضرار ، والمقوم ، وأبو لهب والعباس ، وحمزة ، وأبو طالب بد الله . ومن البنات صفية ، وبره ، وعاتكة ، وأم حكيم ، وأحيحة ، روى . وكانت أمنية عبد المطلب أن يصبح له عشر بنين وقد نذر إذا حققت الأمنية أن ينحر أحدهم عند الكعبة تقرباً لله .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٠ .

(٢) عفت على البئار : غطت عليها وأذهبتها .

٥ ـ حملة الفيل

العرب بين الفرس والروم والأحباش :

فى عهد عبد المطلب ، وقع حادث عظيم ، خلده القرآن الكريم وأسهبت المصادر التاريخية فى الحديث عنه . فقد حاول الأحباش بقودهم أبرهة غزو بلاد الحجاز ، وفتح مكة ، وهدم الكعبة . وكان هذه هى أول محاولة لجيش أجنبى لغزو بلاد الحجاز ، وكان الفرس والروم قد فكروا مراراً فى غزو بلاد الحجاز من الشمال ، ولكنهم عدل عن هذه المشروعات لاستحالتها . ثم كانت هذه المحاولة الحبشية بإيعاز من الروم ، لغزو الحجاز من الجنوب ، ولكن خاب فألهم ، فللكعبة رب يحميها ويرد عنها المعتدين .

نجت بلاد الحجاز ونجد من الغزو والاستعمار الأجنبى . فلم تكن لهذه البلاد خيرات أو مميزات تجذب الفاتح وتشجعه على تحمل وعورة السطح وقسوة المناخ ، بل إن هذه البلاد لا تجود حتى لسكانها ما يمكنهم من حياة رغدة .

وصف المؤرخ (سيديو)[1] بلاد الحجاز فقال : إن الحجاز يجذب النفوس ويشوقها أكثر من غيره لاشتماله على أكثر مدائن العرب . ويتخلل أرض الحجاز كثبان من الرمال وآكام خصبة ، وهى مساكن القبائل .

---

(١) تاريخ العرب العام .

ول هذه الآكام قرى وضياع ، وهى قلاع حصينة تقيهم شر هجمات عداء ، وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار التى تستعمل علفاً اشية ، وبها عيون ماء كثيرة .

وتحدث المؤرخ (واشنجتون أرفنج)[1] عن مدى تعرض الجزيرة ربية للغزو فقال : ربما تدلنا دراسة أخلاق وطبائع العرب على الأسباب ى جعلت أحوال العرب ثابتة على مر الزمن . فقد كان وضعهم الجغرافى حاريهم القاحلة الواسعة تحميهم من الغزو ، كما أدى نزاعهم وصراعهم ستمر ورغبتهم فى الاستقلال الدينى والسياسى إلى أن صاروا بعيدين ن الغزو والاستعمار .

كانت كل من الدولتين الفارسية والرومانية تتمنى لو أنها نجحت فى بسط سلطانها على إقليم الحجاز ، فقد كانت الدولتان قبل ظهور الإسلام تنافسان على مناطق النفوذ ، ولكن وعورة الطرق الموصلة إلى الحجاز ، وطول خطوط الإمدادات والتموين ، وجدب الصحراء ، وعدم وجود جيش عربى مركزى توجه إليه الدولة الفارسية أو الدولة الرومانية جيوشها وجهودها ، أدى إلى بقاء الحجاز فى أيدى أصحابه من العرب بعيداً عن سيطرة الأجنبية .

حتى إذا لمس الفرس والروم عجزهم عن بسط نفوذهم السياسى على بلاد الحجاز ، اتجهوا إلى بلاد اليمن ، حيث كانت تحكمها الدولة الحميرية العربية . وأخذ الرومان ينشرون المسيحية كتمهيد لبسط السيادة الرومانية ، وأدرك الفرس حقيقة أهداف الرومان فعملوا على الوقوف فى وجه السياسة الرومانية وأخذوا يعرقلون التجارة الرومانية فى الخليج الفارسى .

---

(١) حياة محمد ص ١٩ (من ترجمة مؤلف هذا الكتاب) .

كانت اليهودية قد انتشرت فى اليمن فى العصر الحميرى، واعتنقها أحد ملوك الحميريين وهو ذو نواس وأخذ يضطهد المسيحيين ، فهاجم نجران معقل الجالية المسيحية وخير أهلها بين الارتداد عن المسيحية والقتل ، فاختاروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم ، فقتلهم حرقاً فى الخنادق وكان الإمبراطور البيزنطى يعتبر نفسه حامياً للمسيحيين ولذا غضب ونزل بالمسيحيين فى نجران وكتب إلى نجاشى الحبشة يأمره بغزو اليمن والانتقام من ذى نواس . واستجاب النجاشى لنداء الإمبراطور فبعث حملة تتألف من سبعين ألف رجل بقيادة (أرياط) .

كانت الحبشة حينئذ فى ذروة مجدها ، تجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة ، ويمخر لها العباب أسطول قوى يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذاها من البلاد ، وكانت حليفة الإمبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر ، كما كانت بيزنطة رافعة علمها على البحر المتوسط (١) .

انتصر الأحباش على ذى نواس والحميريين سنة ٥٢٣ م ، وقد روى الطبرى (٢) أن ذا نواس همز جواده واقتحم أمواج البحر ولم ير ثانية وهكذا كانت خاتمة آخر حميرى ذهب بذهابه عصر استقلال اليمن .

تظاهر الأحباش أنهم قدموا للانتقام من ذى نواس لما حل بالمسيحيين فى نجران ، ولكنهم كانوا يتخذون هذه الحجة ستاراً يخفون وراءه أغراضهم الاستعمارية . فقد أصبح أرياط حاكماً على بلاد اليمن ، وظل يتولى أمور هذه البلاد حتى أخذ عليه قواده انحيازه إلى فريق منهم فى توزيع العطايا والغنائم ، فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه . وبذلك خلا الجو لأبرهة .

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٣٦ .
(٢) الطبرى جـ ٢ ص ١٠٩ .

لى الحكم فى اليمن بدلا من أرياط [١].

أقام الأحباش فى اليمن كفاتحين، وانقلبوا مستعمرين ، وظلوا من نة ٥٢٥ إلى ٥٧٥م يهيمنون على بلاد اليمن واستثمروا مواردها الاقتصادية صلحتهم .

كنيسة صنعاء وكعبة مكة :

اتخذ أبرهة من صنعاء عاصمة للمستعمرة الحبشية الجديدة، فى بلاد يمن ، وبنى فيها واحدة من أعظم كاتدرائيات العالم فخامة وروعة وهى ى يسميها كتاب العرب (القليس) وهى مشتقة من الكلمة اليونانية (اكليزيا Ekklesia) ومعناها كنيسة . وقد أراد الأحباش أن تكون هذه الكنيسة الكبرى نواة لدولة مسيحية كبرى فى بلاد اليمن ، ثم تمد هذه لدولة نفوذها فيما بعد على شبه الجزيرة العربية ، فيصلون بذلك بين دولة لأحباش المسيحية والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) التى تمتد إلى شارف الجزيرة العربية حيث تقوم إمارة الغساسنة .

تميزت كنيسة صنعاء بالضخامة والفخامة . ويرى الدكتور (حتى) [٢] ن الأحباش المسيحيين كانوا ينوون تنصير البلاد ، وخلق منافس لمكة لوثنية ، التى كانت مركز الحج فى الشمال ، لأن الحج كان مورد دخل عظيم لأولئك الذين يسكنون فى تلك المدينة التى كان يسافر إليها الحجاج ، و على مقربة من الطرق التى كانت تؤدى إليها . وقد نجح الأحباش تأسيس ذلك المعبد الدينى فى الجنوب فى اجتذاب الجماهير ، وأصبح

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤١ .

(٢) تاريخ العرب ص ٧٦ .

التنافس الاقتصادى عظيماً . ويذكر الأستاذ الدكتور طه حسين(١) أبرهة رغم أنه بذل جهداً كبيراً فى ترغيب الناس فى أن يتخذوا من كنيـ بصنعاء كعبة لهم ، إلا أن العرب كانوا أهل وثنية وبالحاج فى الوثـ فكانوا يكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له . وكان الذين يختلف إلى كنيسته قليلين مهما كثروا .

سميت هذه الكنيسة (القليس) لارتفاع بنائها وعلوها ، وقد استذ أبرهة أهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها ألواناً من السخرة وكان ينقل إليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام . وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ومن شدته على العمال ، كان العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يبـ عمله قطعت يده .

كتب أبرهة إلى النجاشى أنه يريد أن يصرف حجاج العرب إ كنيسته ، ويحول تجارة قريش إلى صنعاء ، وجاء فى رسالته : « بنيـ لك بصنعاء بيتاً لم تبن العرب ولا العجم مثله ، ولن أنتهى حتى أصرف حاـ العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم » .

أثار مشروع أبرهة حفيظة العرب ، فخرج رجل من بنى مالك بـ كنانة حتى قدم اليمن ، ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهك حرمتها وغضب أبرهة لذلك أشد الغضب ، وأقسم ليهدمن الكعبة وليحملن العرب على أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف ، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . وتحدث ابن هشام(٢) عن أثر قسم أبرهة فى العرب

---

(١) على هامش السيرة ص ١٤١ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥ .

ال : « وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقاً
لهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام » .

ولم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد
تلوا ذلك الرجل الذى أرسله إليهم ملكاً ، فزادت ثورته ، وأمر بالاستعداد
ن الحال للقتال والرحيل إلى مكة ، وبعث برسالة إلى النجاشى ينبئه
باستعداده للحرب ، ويطلب منه أن يمده بالجنود والفيلة ، واستجاب
لنجاشى لطلبه ، ونجح أبرهة فى تكوين جيش كثيف العدد كامل
العتاد .

لم تكن محاولة الأحباش هدم الكعبة فى مكة ، هى المحاولة الأولى
لهدم هذا المكان المقدس . فقد كان بعض أهل اليمن قديماً يرجون الخلاص
من الكعبة إما بهدمها أو الاستحواذ عليها .

كان أهل اليمن قد بدأوا يهاجرون إلى أرجاء الجزيرة العربية ، ولفتت
مكة أنظارهم واسترعت اهتمامهم ، وفكر بعضهم فى الاستيلاء عليها
للاستفادة مما كان الحج إلى الكعبة يعود به من منافع مادية واختلفت
خطط تابعة اليمن ، فبعضهم يريد هدم الكعبة فتصده القبائل المحيطة
بالحرم ، خزاعة أو قريش ، ويدنو بعضهم من الكعبة فيعظمها ليستولى
عليها بالحيلة .

قدم قوم من هذيل من بنى لحيان إلى (تبع) باليمن ينبئونه أن بمكة
بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد إليه ، وتنحر عنده ، وأن قبيلة قريش
تتولى الإشراف عليه ، فحازت المجد والشرف ، واقترح القوم على تبع أن
يخرج لهدم الكعبة ، وأن يبنى بيتاً آخر باليمن فيحوز ما حازته قريش .

خرج تبع من اليمن قاصداً مكة ليهدم الكعبة ، ولكن سرعان ما تأثر
بما لبيت الله الحرام من رهبة وقدسية ، فقد أحجم عن هدمه ، بل كساه

ونحر عنده . ويعلل المؤرخون هذا التحول بهبوب رياح وعواصف شديد أوقعت الاضطراب فى خيام اليمنيين ، مما أثار مخاوفهم وجعلهم يعدلون عن هدم الكعبة بل تقربوا لها بالهدى ، وعاد تبع إلى اليمن يجر أذيال الخيبة ليعاقب هؤلاء الهذليين الذين خدعوه وجعلوه يقوم بهذه المحاولة الفاشلة .

مع أبرهة إلى مكة :

رأينا أبرهة وقد ملأته الحماسة وهزه الغضب ، فعزم على أن يهدم الكعبة . وقد استعرضنا آراء كثيرة لعديد من المؤرخين ، فرأينا من يرى أن أبرهة قد أراد أن يتخلص من الكعبة ليجذب العرب إلى كنيسته بصنعاء ليحوز ما تستفيده قريش من قدوم الحجاج فى كل سنة . ورأينا من المؤرخين من أشار إلى رغبة أبرهة فى تنصير العرب جميعاً ، ورأينا منهم من ذهب إلى أن أبرهة أراد أن يقود حملة تأديبية لتأديب العرب الذين انتهكوا حرمة كنيسته فلطخوها بالقاذورات والجيف .

ونحن نؤمن بصحة هذه الآراء جميعاً ، ونرى أنها تكاتفت جميعاً على دفع أبرهة للقيام بغزو مكة والشروع فى هدم الكعبة ، فكان ما يسميه التاريخ بحملة الفيل أو حرب الفيل .

ولكننا نضيف إلى هذه العوامل جميعاً عاملا شخصياً يمس أبرهة وعلاقته بملكه نجاشى الحبشة . فقد أقدم أبرهة على قتل أرياط قائد النجاشى الذى هزم ذا نواس وانتزع بلاد اليمن من العرب الحميريين . وأدى قتل أرياط إلى إثارة غضب النجاشى وسخطه على أبرهة ، فبعث يتوعده وأقسم أن يطأ أرض اليمن ويقطع رأس أبرهة .

وخشي أبرهة أن يبر النجاشي بقسمه . فبعث برسالة ينشد فيها العفو يبر ر ما أقدم عليه ، فقال : أيها الملك . إنما كان أرياط عبدك، نا عبدك ، اختلفنا فى أمرك وكلنا طاعة لك ، إلا أنى كنت أقوى على ر الحبشة منه ، وأضبط وأسوس ، وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى سم الملك ، وبعثت به إليه مع جراب من تراب أرضى ليضعه تحت دميه فيبر بذلك قسمه » .

ويبدو أن النجاشي رأى أن يخضع لواقع الأمر ، فعفا عن أبرهة ليضمن ولاءه ، وحتى لا يهدد أبرهة وحدة الجيش الحبشي بالانقسام . فكتب النجاشي لأبرهة : « اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى » .

خرج أبرهة على رأس الجيش الحبشي قاصداً مكة ، وقد امتطى ظهر فيل كبير اسمه (محمود) وسارت خلفه عدة أفيال على عادة الأحباش . ولم يكن طريق أبرهه إلى مكة سهلا ميسوراً ، فقد قابلته عقبات وصعوبات كان أولها اعتراض رجل من أشراف اليمن يقال له « ذو نفر » ، فقد استنفر قومه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة وصده عما يريد من هدم بيت الله ، وكان ذو نفر حليفاً لقبيلة قريش . ولكنه لم يستطع الصمود طويلا أمام جيش أبرهه الكثيف العدد ، الزاخر بالسلاح والفيلة ، فلحقت به الهزيمة ، ووقع فى أيدى الأحباش أسيراً ، وأراد أبرهه أن يقتله فاستعطفه ذو نفر وقال : أيها الملك ، لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى . فعفا أبرهه عنه . وحبسه عنده فى وثاق[1] .

بلغ جيش أبرهه تهامة اليمن ، فخرج قوم من أهلها اشتهروا بالبأس والشجاعة ، وهم بنو خثعم ، بقيادة زعيمهم نفيل بن حبيب الخثعمى ، وكان جيشه يتألف من جميع بطون خثعم وأشهرها شهران وناهس ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٦ .

واستبسل بنو خثعم فى القتال ، ولكن أبرهة نجح أخيراً فى هزيمتهم وأسر رئيسهم نفيل ، وأراد قتله . وربما كان نفيل محباً للحياة ، فقد استعطف أبرهة وطلب عفوه عنه فقال : أيها الملك ، لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم ، شهران وناهس بالسمع والطاعة (١) . وعفا أبرهة عنه ، وتقدم نفيل ليدل الأحباش إلى الطريق الذى يقودهم إلى مكة .

مضى الجيش الحبشى فى طريقه ، حتى بلغ مدينة الطائف ، أجمل مدن الحجاز وأخصبها ، فخرجت إليه قبيلة ثقيف بزعامة مسعود بن معتب يعلنون لأبرهة ولاءهم وميلهم إلى السلام ، وغالوا فى استعطاف أبرهة فقالوا : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد — يعنون اللات — إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه (٢) »

وكان هذا الدليل هو أبو رغال الذى قادهم إلى المغمس على مشارف مكة ، وهناك وافت المنية أبا رغال . وسخط العرب على أبى رغال هذا فاعتادوا رجم قبره .

كانت منزلة قبيلة ثقيف فى الطائف على مثيلة منزلة قريش فى مكة . وكانت القبيلتان تتنافسان وتتحاسدان . وقد حاولت ثقيف أن تنافس قريشاً فى ميدان التجارة ، فكانت لها قوافلها التى ترحل دائما بين العراق واليمن ، مثلما كانت قبائل قريش ترحل بين الشام واليمن ، وقد بنت ثقيف فى الطائف بيت اللات ليكون لها بيتاً مقدساً ككعبة قريش . ولذا لا عجب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٦ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧ .

ثقيفاً كانت تتمنى أن ينجح أبرهة فى هدم الكعبة والقضاء على مجد
لة قريش ، فترث ثقيف مكانتها بين القبائل العربية .

حفاق حملة الفيل :

خرج أبرهة على رأس الجيش الحبشى قاصداً مكة ، وقد امتطى
هر فيل كبير اسمه (محمود) ، وخلفه عدة أفيال على عادة الأحباش .
ل أبرهه (المغمس) وهو موضع على ثلثى فرسخ من مكة ، وبعث
فريق من جنده استولى على كثير من أموال قريش ومتاعها . ومنها مائتى
عير لعبد المطلب بن هاشم زعيم قريش . وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن
كان بالحرم من سائر الناس بقتال الأحباش ، فرأوا أن لا طاقة لهم بهم .

ثم بعث أبرهة رسولا إلى مكة يدعى حناطة الحيرى وقال له : سل
عن سيد هذا البلد ثم قل له إن الملك يقول لكم إنى لم آت لحربكم ، وإنما
جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم ،
فإن لم يرد حربى فأتنى به . ونقل حناطة الحديث إلى عبد المطلب فأجاب
عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله
وبيت خليله إبراهيم . فطلب حناطة من عبد المطلب أن يصحبه للقاء
أبرهة :

انطلق عبد المطلب مع حناطة يصحبه بعض أبنائه حتى بلغ معسكر
أبرهة ، وقام ترجمان يجيد لغتى العرب والأحباش بالترجمة ، فسأل الترجمان
عبد المطلب عن حاجته فأجاب : حاجتى إلى الملك أن يرد على مائتى
بعير أصابها لى . وتعجب أبرهة من مقال عبد المطلب وقال للترجمان :

---

(١) على هامش السيرة ص ١٤١ .

قل له كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلم في مائتي بعير قد أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئ لهدمه لا تكلمني فيه ؟ فأجاب عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإ للبيت رباً سيمنعه . فقال أبرهة : ما كان ليمتنع عني . فقال عبد المطل أنت وذاك(١).

عرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مـ ولا يهدم البيت ، فأبى أبرهة إلا أن يمضي في تنفيذ ما قدم من أجله وعاد عبد المطلب إلى مكة غاضباً وهو ينشد :

يا أهل مكة قد وافاكم ملك ... مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه ... مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه ... كمنع تبع لما جاء ها حرد

وأمر عبد المطلب قريشاً أن تلحق ببطون الأودية ورءوس الجبال . وقدم الإبل التي استردها من أبرهة هدياً للكعبة . ووقف بباب الكعبة وهو يقول(٢) :

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فاصنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

أخفقت المفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب ، وأصبح السلام مستحيلا وبقي تحكيم السيف . واستعد أبرهه لدخول مكة وهدم الكعبة . وبدأ الجيش الحبشي الرحيل ، وكان بين المكان الذي عسكر الجيش فيه وبين مكة مسيرة ثلاثة أيام .

برك الفيل (محمود) ، فكان إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٠ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨ .

إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد . ويجد ساسته بعد ذلك فى
ضه فلا يبلغون منه شيئاً ، يحثونه ويؤذونه ويضربونه ، ويبلغون به أقصى
هيج الفيل فلا ينهض ، حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن
نحو الشرق نهض ومضى مهرولا ، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك ولم
دم[١] .

ثم جاءت خاتمة المأساة ، ويروى المؤرخون القدامى أن الله قد أرسل
البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار
ملها ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ،
تصيب أحداً منهم إلا هلك[٢] . ووصف المؤرخ المسعودى[٣] مصير
يش فقال : « فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم
جارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر مع كل
ير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل » .

وخلد القرآن الكريم هذا الحدث التاريخى الكبير ، فنزلت سورة
يل : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ
بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .

يرى بعض المؤرخين أن الطير الأبابيل وحجارة السجيل كناية عن وباء
جتاح الجيش الحبشى ، ويذكر ابن إسحق والأزرقى أن أول ما عرفت
لحصبة والجدرى بأرض العرب هذا العام .

---

(١) على هامش السيرة ص ١٤٦ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥٢ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٨ .

هلك معظم جند أبرهة ، ونجت القلة القليلة . وممن نجا أنيس سائ الفيل وخادمه وقد لجآ إلى مكة وعاشا بها إلى أن شاخا وعميا ورأتهما السي عائشة أم المؤمنين يتسولان فى شوارع مكة . أما أبرهة فقد مسه حج فصرع ، وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط حتى مات .

نتائج إخفاق حملة الفيل :

كان قدوم جيش أبرهة إلى مكة على هذه الصورة التى شهدناه حدثاً خطيراً ، وتجربة قاسية تعرض لها عبد المطلب وقريش وأهل مكة وتطلع العرب إلى ما تخبئه الأيام . ولكن الله سبحانه وتعالى دافع عز بيته الحرام ، وتصرف عبد المطلب بحكمة وحسن تدبير ، فجنب قومه الأخطار والمهالك ، ولذا لا عجب أن ارتفع ذكره وعظم شأنه بين العرب جميعاً .

تحدث المؤرخ (براون)[1] عن غزو الأحباش للكعبة فقال : إن عام الفيل يعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية . وتحدث الدكتور هيكل[2] عن نتائج هذه الحملة فقال : زاد هذا الحادث الفذ العجيب فى مكانة مكة الدينية . وزاد تبعاً لذلك ، فى مكانتها التجارية ، وزاد أهلها انصرافاً عن التفكير فى شىء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ، ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها . وزاد المكيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصورها للترف فى هذه الجهة

---

(١) Lit Hist. of Persia, V.I, p. 176 .

(٢) حياة محمد ص ٦٤ .

الصحراوية الجرداء .

وعادت الحياة الهانئة الوادعة إلى مكة بعد هذا الحادث ، فأخذ أهلها يجلسون فى كل صباح ومساء إلى جانب نيف وثلاثمائة صنم ، يقص بعضهم على بعض أخبار البادية ، وما يقع فى مدن الحجاز والحيرة والغساسنة .

أعظمت العرب قريشاً وقالوا : « الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم » فجعلوا يقولون فى ذلك الأشعار ، قبل نزول السورة الكريمة بأربعين عاماً . وجاءت هذه السورة لتأييد التاريخ وإظهار محبة الله للبيت الحرام حتى قبل البعثة المحمدية ، فقد أمر الله إبراهيم وإسماعيل ببناء الكعبة لإحياء كلمة التوحيد التى يعيدها محمد . وقد حمى الله الكعبة لتكون بعد أربعين عاماً كعبة المسلمين وقبلتهم[1] .

كان إخفاق حملة الفيل معجزة كبرى ، وشاء الله أن يمعن فى الانتقام من الأحباش لإقدامهم على محاولة هدم الكعبة ، فما لبث أن أزال حكمهم من بلاد اليمن ، فخلت الجزيرة العربية من آثار النفوذ الحبشى .

بعد فترة وجيزة من هزيمة أبرهة ، قامت حركة وطنية فى دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش وكان على رأس هذه الحركة سيف بن ذى يزن الحميرى الذى سعى فى إنقاذ قومه من الأحباش ، فسار إلى ملك الحيرة العربى ليتوسط له لدى كسرى أنوشروان ليمدّه بقوة يستعين بها فى إخراج الأحباش من بلاد اليمن وكان العرب المسيحيون فى تلك البلاد يتطلعون إلى الحماية والرعاية من الروم ، كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبون العون منهم . فلما استنجد سيف بن ذى يزن بكسرى فارس أمدّه بحملة سنه ٥٧٥ م بقيادة وهرز . وقد تغلّب القائد على الأحباش فى اليمن بقيادة مسروق بن أبرهة ، وأنقذ وحدة البلاد من

---

(١) ثورة الإسلام ص ٢٧٢ .

حكمهم البغيض (١).

فرح عبد المطلب لخلاص بلاد اليمن، والجزيرة العربية كلها، من النفوذ الحبشي، وشعر بالحبور إذ تولى أمر بلاد اليمن عربي هو سيف بن ذي يزن، وعبّر عبد المطلب عن حبوره وسروره، بأن رأس وفداً من وجوه قريش، وخرج بهم من مكة إلى بلاد اليمن لتهنئة ابن ذي يزن بانتصاره على الأحباش وتولية السلطة في بلاده. وكان من أبرز هؤلاء الوجوه أمية بن عبد شمس وخويلد بن أسد وألقى عبد المطلب خطبة طويلة في حضرة ابن ذي يزن، ورد عليه هذا بخطبة مثلها.

رحب ابن ذي يزن بعبد المطلب وقال له: مرحباً بابن أختنا. فقد كانت سلمى أم عبد المطلب من الخزرج، وهم من اليمن من سبأ. وكان سيف من حمير من سبأ.

كان إخفاق حملة الفيل محوراً لنشاط أدبي كبير، فقد اتخذه كثير من الشعراء موضوعاً لقصائد عصماء، تذكر منهم عبد الله بن الزبعرى، وأبو قيس بن الأسلت، وطالب بن أبي طالب بن عبد المطلب وأبو الصلت بن ربيعة الثقفي، والفرزدق، وعبد الله بن قيس الرقيات، وغيرهم.

أشار علماء اللغة المسلمون والمستشرقون إلى عدد من الألفاظ العربية ذكروا أنها من أصل حبشي، وهي من الألفاظ التي كانت مستعملة معروفة قبل الاسلام، وقد ورد بعضها في الشعر الجاهلي (٢).

خلّفت حملة أبرهة فلولا هاربة مما لحق بجيش أبرهه، لم تر بدّاً من

---

(١) جمال سرور: قيام الدولة العربية ص ٢٨.

(٢) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٩٣.

الحياة فى مكة . فيذكر الأزرقى(١) : «وأقام بمكة فلال من الحبش وبعض من ضمه العسكر يعتملون ويرعون لمكة» .

ولما ظهر الإسلام بمكة ، أسرع عدد وافر من هؤلاء الأحباش إلى اعتناقه ، فجر ذلك عليهم اضطهاد أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش . من هذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع ، وبلال ، وعامر بن فهيرة ، ووحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وصؤاب حامل لواء قريش فى ذلك اليوم كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص فى كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرر بعضهم من الرق(٢) .

كان إخفاق أبرهه حادثة تاريخية . وفاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة ، حتى إنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم . فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها ، ونشر دين توحيد جديد هو دين الحنيفية ، إذ لو أتيح لهذا الجيش الحبشى النصر والظفر لتغيّر وجه التاريخ ، وانتشر الدين المسيحى بين العرب ، وانصرف الناس عن مكة إلى صنعاء(٣) .

ولد الرسول صلى الله عليه وسلم فى عام الفيل ، وتاريخه ٥٧٠ م . وحملة الفيل هى « حرب السبعين » فى جزيرة العرب التى باء فيها الأحباش واليمنيون بالخسران . وكان عام النهضة بمولد نبى المستقبل . وفوجىء عبد المطلب فى هذا العام بكوارث عدة ، منها موت ولده عبد الله ، وهجوم الأحباش على وطنه ، وانزعاجه بضياع إبله التى كافح لدى أبرهه فى استردادها حتى أعادها إلى قوافل الميرة . ولكن الله عز وجل عوّضه بمولد

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة ص ٩٧ .
(٢) العبادى : صور من التاريخ الإسلامى ص ٢١ .
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥١ .

حفيده الكريم محمد عن هذه الكوارث جميعاً . فكان مولده إيذاناً بشروق شمس الهدى فى الجزيرة العربية .

نقد وتحليل لموقف عبد المطلب :

اتخذ عبد المطلب سياسة الدفاع بدلا من الهجوم ، وفاوض أبرهة من أجل الجلاء عن مكة والعودة من حيث أتى ؛ ولم يبادره بالهجوم أو القتال . فهل أتت هذه السياسة بالفائدة المرجوة منها ؟ ونستطيع أن نقول إن عبد المطلب كان حكيماً فى اتخاذه هذه السياسة ، بل إنها كانت السياسة الوحيدة التى يمكن انتهاجها فى مثل هذا الموقف الحرج .

كان الجيش الحبشى كثيف العدد ، يزخر بالسلاح والعتاد ، وقد بذل أبرهة جهداً كبيراً فى إعداده وإمداده بالذخائر والتموين ، واستعان بما وجده فى بلاد اليمن ، وبما أرسله النجاشى له من الحبشة ، فقد بعث له بالرجال والسلاح والفيلة . وهو جيش منظم ، اعتاد الحرب ، وخبر فنون القتال ، وهو الجيش الذى نجح فى القضاء على المملكة الحميرية ، وهو جيش الاحتلال الذى يستعين به الأحباش لتدعيم الاستعمار الحبشى فى بلاد اليمن .

أدرك أهل مكة أنهم عاجزون عن مواجهة جيش أبرهة ، إذ أن ذلك يعرضهم ويعرض مكة للهلاك . وكانت قبيلة قريش قبيلة تجارية ولم تكن قبيلة حربية ، بل انتهجت سياسة سلمية فى الجزيرة العربية ، لتضمن سلامة قوافلها التجارية ذات الأهمية الاقتصادية الكبيرة . وقد وصف الجاحظ قبيلة قريش وعدد مزاياها ، فوصفها بالكرم والسخاء ، والعقل والدهاء ، والسياسة والتدبير ، ولكنه لم يتحدث عن ميلها للحرب أو الغزو وتحدث المؤرخ كرد على عن قريش فقال : أخذت قريش تضرب فى

البلاد إلى قيصر بالروم والنجاشى بالحبشة والمقوقس بمصر وكسرى بالعراق تجعل من أرضهم متجراً لها ، ذلك لأن قريشاً زهدت منذ زمن بعيد فى الغصوب ، فلم يبق لهم مكسبة سوى التجارة ، و بالتجارة عرفوا ما جاورهم من الأمم والشعوب وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء .

أيقنت قريش بعدم جدوى القتال لتفوق الجيش الحبشى فى العدد والسلاح والإمدادات . ويؤكد المؤرخون القدامى أن قريشاً رغبت فى أول الأمر فى القتال ولكنها غلبت الحكمة والعقل. فيروى الطبرى(١) : « فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ، ورأوا أن لا طاقة لهم به » وأدرك عبد المطلب بحكمته وحسن تدبيره أنه عاجز عن صدّ هذه الأعداد الكبيرة من الجند الأحباش ، بل اعترف بذلك لرسول أبرهة إليه فقال : « والله ما نريد حربه (أى أبرهة) وما لنا بذلك من طاقة » .

كانت مدينة مكة مقدسة إذ بها بيت الله الحرام ، ولذا حرص العرب على أن يسود السلام هذه المدينة ، وأن يجنبوها الحرب والقتال . وقد جعل عبد المطلب مكة « مدينة مفتوحة » وهى السياسة التى شهدناها فى بعض مدن أوربا فى الحرب العالمية الثانية ، فقد أصبحت هذه المدن مدناً مفتوحة لأهميتها الحضارية وللحفاظ على ما فيها من تراث بشرى . وقد أعلن أبرهه أنه لم يقدم للحرب وحدد أهدافه بهدم الكعبة فقال لعبد المطلب : « إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة إلىّ بدمائكم » . ولذا رأى عبد المطلب ألا يكون البادئ بالقتال كما أن أبرهه كان هو البادئ بطلب الدخول فى مفاوضات مع عبد المطلب ورأى عبد المطلب أن يستجيب لدعوة أبرهة ، فقد تؤدى هذه المفاوضات

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١١١ .

إلى تجنيب مكة شر القتال .

ولم يقف عبد المطلب موقفا سلبيا من الهجوم الحبشي؛ فقد لجأ إلى وسيلتين لحماية أهل مكة ، بعد أن رأى عدم جدوى الالتجاء إلى السلاح . أولها وسيلة دفاعية قد تكون أكثر جدوى من الهجوم ، فقد « أمر قريشاً أن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال »(١) . أما الوسيلة الثانية فهي إغراء أبرهة بالمال والذهب فقد عرض عليه ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت ، ولكن أبرهه رفض هذه العرض(٢) .

أسست قريش في مكة وحول الكعبة حكومة جمهورية صغيرة ، ولما كانت قريش تعتمد في حياتها على التجارة فقد انتهجت سياسة سلام وصداقة مع جميع الدول والقبائل ، وعملت على حفظ التوازن بين سائر القوى العربية ، وفض المشاكل بالطرق السلمية .

جعل الأحباش الفيلة في مقدمة جيشهم ، وكانت هذه الحيوانات تثير مخاوف العرب وتجعلهم يترددون في مواجهتها . والتاريخ يعيد نفسه . فقد استعان الفرس خلال الفتوحات الإسلامية لأراضي الدولة الفارسية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بالفيلة ، فقد أراد الفرس أن يحيلوا هزائمهم نصراً فبثوا الرعب في قلوب الجند المسلمين ، فجعلوا الفيلة في مقدمة جيوشهم ، فلما رأتها خيول المسلمين أجفلت ، فقد غطى الفرس الفيلة بسعف النخيل وعلقوا عليها الأجراس . وتقدم قائد الجيش الإسلامي أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فهجم عليه فيل أبيض ، فوجه أبو عبيد إليه ضربة بسيفه تلقاها الفيل بقدمه ، وما لبث الفيل أن أوقع أبا عبيد أرضاً وداسه بأقدامه . ثم نجح القائد عبد الله بن مرثد الثقفي أن يقود المسلمين

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٢) الطبري جـ ٢ ص ١١١ .

يعبر بهم نهر الفرات فنجوا من الفيلة(١).

أراد عبد المطلب أن يضمن سلامة الكعبة بيت الله الحرام ، وكان شتباكه مع الأحباش فى حرب يعرضها للهدم وهو الغرض الذى قدم لأحباش من أجله . والتاريخ يروى كيف أدى قتال عبد الله بن الزبير لقائدين الأمويين الحصين بن نمير فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن عاوية والحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، إلى تصدع أجزاء من الكعبة . وكان ابن الزبير قد لاذ بالكعبة ، وظن أن الأمويين سيحجمون عن قتاله عند الكعبة لحرمتها ، يمى نفسه « العائذ بالبيت »(٢).

كما أن مكة وموقعها الجغرافى وطبيعتها لا تجعلها تصلح لتكون ساحة تال ، فالجبال تحيط بها من معظم جهاتها ، وتجعل الكر والفر عسيراً ، كما كانت مكة فقيرة فى موارد مياهها و إمداداتها وتموينها ، مما يجعلها تحتمل حصاراً طويلا أو حرباً عامة .

علم عبد المطلب برحلة أبرهة من صنعاء باليمن إلى مكة . فقد نجح ى إلحاق الهزيمة بذى نفر وقومه و بنى خثعم فى تهامة اليمن ، وأسر زعيمهم يل بن حبيب الخثعمى ، واضطر ذو نفر ونفيل إلى طلب الرحمة والعفو ن أبرهة . كما علم عبد المطلب بموقف عرب ثقيف بالطائف فقد اتخذوا وقفاً عدائيًا وشجعوا أبرهة على غزو مكة وخرجوا يدلونه إلى الطريق . ولذا ى عبد المطلب أن يستفيد من تجارب الآخرين .

وكان عبد المطلب والقرشيون واثقين من حدوث معجزة تدفع خطر لأحباش عن مكة وتنقذ الكعبة من هجوم أبرهة . وتجلى هذا واضحاً فى

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٦٣١ ، انظر كتابنا(المختار الثقفى) ص ١٨ .
(٢) انظر كتابنا(عبد الله بن الزبير) سلسلة أعلام العرب .

قول عبد المطلب لأبرهة : « وإن للبيت ربًّا سيمنعه » . وفى توجهه إلى الله تعالى بالدعاء قائلا :

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... امنعهم أن يخربوا قراكا

وكان عبد المطلب على حق فى انتظار هذه المعجزة ، فقد مر القرشيون بتجارب مماثلة ، وقد رأينا كيف حاول تبابعة اليمن الخلاص من الكعبة ، إما بهدمها أو الاستحواذ عليها ، ورأينا كيف حاول (تبع) هدم الكعبة ، ولكن الله أنقذ بيته الحرام ، فقد هبت عواصف ورياح على المعسكر التبعى ، كفت أهل مكة شر القتال .

وقد أنشد عبد المطلب بعد إخفاق أبرهة أبياتاً من الشعر تحدث فيها عن حماية الله لبيته الحرام ، وذكر ما حدث لتبع الحميرى اليمنى ثم لأبرهة الأشرم القائد الحبشى ، فقال(١) :

أيها الداعى لقد أسمعتنى ... ثم ما بى عن نداكم من صمم
إن للبيت لربا مانعا ... من يرده بأثام يصطلم
رامه تبع فيمن جندت ... حمير والحى من آل قدم
فانثنى عنه وفى أوداجه ... جارح أمسك منه بالكظم
قلت والأشرم تردى خيله ... إن ذا الأشرم غر بالحرم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٩.

٦ ـ عبد المطلب فى أسرته

أسرة عبد المطلب :

عبد المطلب هو حفيد قصى بن كلاب ، موحد قريش ، ومؤسس مجدها ، وقد تطورت مكة فى عهده حتى أصبحت قلب الحجاز النابض . وكان اسمه وهو صغير زيداً ، ثم اكتسب اسم (قصى) لأنه نشأ فى أرض قضاعة ببلاد الشام بعيداً عن وطنه فى مكة . وارتفع شأن قصى فى مكة فكان كما قال الطبرى (١) «فأقام قصى بمكة على شرف ومنزلة فى قومه لا ينازع فى شىء من أمر مكة» . وكان أول من تولى السقاية والرفادة والحجابة واللواء ودار الندوة وغيرها من مناصب الشرف والرفعة .

أنجب قصى : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد قصى . وعهد إلى ابنه الأكبر عبد الدار مناصب الشرف فى مكة ليتفوق بها على أخيه عبد مناف الذى كان له من قوة الشخصية ورجحان العقل ما جعل أمره يشتهر بين العرب .

أنجب عبد مناف (واسمه الحقيقى المغيرة واشتهر باسم القمر أيضاً) أربعة أبناء هم : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، وأمهم عاتكة بنت مرة بن هلال من بنى هلال من بنى عكرمة كما أنجب نوفل بن عبد مناف وأمه واقدة بنت عمر المازنية . كما أنجب عبد مناف عدة بنات هن : تماضر ، قلابة ، حية ، ربطه ، أم الأخنس ، أم سفيان .

وأنجب هاشم أربعة أبناء وخمس بنات : عبد المطلب ، أسد ،

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ١٨ .

أبا صيفي ، نَضْلة ، الشفاء ، خالدة ، ضعيفة ، رقيه ، حية . أما أم عبد المطلب ورقية فهي سلمى بنت عمرو بن زيد وهي من بني النجار بيثرب .

كان هاشم ، والد عبد المطلب ، من أبرز رجالات قريش ، فتولى الرفادة والسقاية وهي من أشرف المناصب في ذلك الحين . وبعد وفاة هاشم خلفه أخوه المطلب في هذه المناصب ، وكان : « ذا شرف في قومه وفضل ، وكانت قريش إنما تسميه الفيض لسماحته وفضله » . والمطلب هو الذي رحل إلى يثرب ليأتي بابن أخيه عبد المطلب حينما أتم السابعة أو الثامنة من عمره لينشأ في كنفه حتى يبلغ رشده فيخلفه في السقاية والرفادة فكان عبد المطلب ربيب عمه المطلب ، بل اكتسب اسمه منه ، فقد كان اسمه عند مولده (شيبة الحمد) ثم أصبح اسمه (عبد المطلب) فقد ظن بعض المكيين حين شاهدوا (شيبة) يركب خلف المطلب ناقته أنه عبد صغير اشتراه فأصبحوا يطلقون عليه (عبد المطلب) .

توفي المطلب خلال رحلة له إلى بلاد اليمن فأنشد شاعر عربي في رثائه :

قد ظمئ الحجيج بعد المطلب ... بعد الجفان والشراب المنشعب
ليت قريشاً بعده على نصيب

ثم تولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب « فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقدمهم من أمرهم ، شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

أنجب عبد المطلب عشرة رجال وست بنات : العباس ، حمزة ، عبد الله ، أبا طالب (واسمه الحقيقي عبد مناف) ، الزبير ، الحارث ، حجل ، المقوم ، ضرار ، أبا لهب (واسمه الحقيقي عبد العزى) ، صفية ،

أم حكيم البيضاء ، عاتكة ، أميمه ، أروى ، برة .

وأم العباس وضرار هى نُتَيْلة بنت جناب بن كليب بن مالك وينتهى نسبها إلى نزار . أما أم حمزة والمقوّم وحجل وصفية فهى هاله بنت وهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب . أما أم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع بنات عبد المطلب عدا صفية فهى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى (١) . أما أم الحارث بن عبد المطلب فهى سمراء بنت جندب من بنى عكرمة ، وأم أبى لهب هى لبنى بنت هاجر الخزاعية .

كانت الزوجة الأولى لعبد المطلب هى سمراء بنت جندب ، وهى من بنى عكرمة إحدى قبائل البادية ، وقد أنجبت لعبد المطلب أكبر أولاده وهو الحارث . وقد قامت سمراء بتسكين خاطر عبد المطلب حينما كان الهاتف يأمره فى كل ليلة بحفر زمزم ؛ وهو حيناً يسميها طيبة ، وحيناً يسميها برة ، ومرّة ثالثة يسميها المضنونة . وكان عبد المطلب فى بداية الأمر فى حيرة من أمره لا يدرك ما هى طيبة أو برة أو المضنونة ، فكانت سمراء تهدئ من روعه وتدعوه للتفاؤل .

وكان للحارث بن عبد المطلب شرف الاشتراك فى إعادة حفر بئر زمزم . وكان حينئذ شاباً حدثاً ، ولذا كان استعمال أدوات الحفر يسبب له إرهاقاً وعناء . حتى إذا وجد عبد المطلب ما خبأه مضاض الجرهمى فى البئر من ذخائر ونفائس حتى حاولت قريش أن تشاركه فيما عثر عليه ، ودار حوار وجدال واحتكموا إلى كاهن رحلوا إليه طويلا ، وكادوا جميعاً أن يهلكوا عطشاً لولا أن تدخلت العناية الإلهية فتفجرت عين ماء ، فقال القرشيون لعبد المطلب : عُد بنا يا شيبة إلى مكة فقد قُضى علينا ، وإن

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٠٩ .

الذى أسقاك فى هذه الصحراء وأنقذنا بك من الهلاك ، وهو الذى سقاك فى مكة وساق إليك ما تروى به الحجيج .

علمت سمراء بعودة زوجها فى سلام الله ، وقد نصره الله على من نازعوه ، فكان شعورها مزيجاً من السرور والحزن ، وقالت : حبذا شيبة مسافراً ، وحبذا شيبة مقيماً ، ولكن شيبة لن يخلص لى منذ اليوم ، إنه ليريد كثرة الولد ، وأى نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه ؟ وحدث ما توقعت سمراء ، فقد خطب عبد المطلب فاطمة بنت عمر بن عائذ المخزومى .

أصبحت فاطمة تحتل مكانة كبرى فى قلب عبد المطلب وعواطفه ، فقد انصرف إليها عن كل إنسان ، ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات اشتد لذلك حب عبد المطلب لها وكلفه بها وانصرافه إليها ، وتجافيه عن زوجه الأولى . وعرفت سمراء ألم الحزن فى هذه الأعوام الطوال من حياتها . ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال ، ذكية القلب ، تعرف كيف تخفى على زوجها ما يكره ، وكيف تلقاه بما يحب(١) .

وتشاء الأقدار أن تضاعف من آلام سمراء ، فقد مات ابنها الوحيد الحارث ، وقد كان يعوضها عما افتقدته من حنان عبد المطلب بعد زواجه من فاطمة المخزومية ونُتَيْله . ولكن عبد المطلب كان إنساناً كريماً شفوقاً ، فاستمر يتردد على سمراء . محاولا التخفيف من آلامها وأحزانها على فقدها ولدها الوحيد .

تزوج عبد المطلب من خمس نسوة : سمراء ، وفاطمة ، ونتيله ، ولبنى ، ثم من هالة بنت أهيب بن عبد مناف من زهرة ، وقد تزوجها

---

(١) على هامش السيرة ص ٢٣ .

عبد المطلب فى الوقت نفسه الذى تزوج فيه ابنه عبد الله بنت وهب(١) .

نذر عبد المطلب:

خرج عبد المطلب ليحفر زمزم وليس معه سوى ابنه الحارث ، وكان العمل شاقا مؤلماً ، تحمله الأب والابن ، فى صبر وقوة واحتمال ، حتى أتماه وبلغا به شرفاً ومجداً عظيماً . ثم كان نزاع قريش له فيما عثر عليه من ذخائر . وأدرك عبد المطلب أن قريشاً ما كانت لتنازعه إلا لضعفه لقلة أولاده ، فرأى أن يعاود الزواج لينجب البنين فيكونوا عصباً له يعضدونه ويشدون أزره . ونذر عبد المطلب « لئن ولد له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة » .

ومضت السنون ، وتحققت أمنية عبد المطلب ، واصبح أولاده عشرة وأدرك عبد المطلب أنه آن أوان الوفاء بالنذر ، ودعا أبناءه إليه وأخبرهم فأبدوا طاعتهم ورضوخهم . ولكن من منهم يكون الذبيح ؟ وسأله أبناؤه : كيف نصنع ؟ فقال عبد المطلب : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتونى . ففعلوا ، ثم أتوه ، فدخل بهم على هُبل فى جوف الكعبة ، وكان هبل على بئر فى جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر هى التى يُجمع فيها ما يهدى للكعبة .

وكان عند هُبل قداح سبقه ، كل قدح منها فيه كتاب ، فقدح فيه (العقل) أى الدية وقدح ثان فيه (نعم) للأمر إذا أرادوه ، يُضرب به فى

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٧ .

القداح ، فإن خرج قدح (نعم) عملوا به . وقدح ثالث فيه (لا) إذا أرادوا أمراً ضربوا به فى القداح ، فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر ، وقدح فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) ، وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح ، وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج عملوا به ، وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً ، أو يدفنوا ميتاً ، أو شكوا فى نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هبل ، وأعطوا صاحب القداح مائة درهم وجزروا ليضرب لهم بالقداح .

قال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذى نذر ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه .

ضرب صاحب القداح ، فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ المدية ، ثم أقبل بعبد الله إلى أساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ؛ لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ! وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة ، وكان عبد الله ابن أخت القوم : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه . وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل ، وانطلق به إلى الحجاز ، فإن به عرافة لها تابع ، فسلها ، ثم أنت على رأس أمرك ، إن أمرتك تذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

فانطلقوا جميعاً حتى قدموا المدينة ، فوجدوا العرافة (١) فى خيبر ،

---

(١) تذكر بعض المصادر أن اسم العرافة (قطبه) بينما تذكر مصادر أخرى أن اسمها (سجاح) .

فركبوا حتى جاءوها ، فسألوها وقص عبد المطلب عليها خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ، ونذره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله . فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها ، قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها ، فقالت لهم : قد جاء فى الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . وكانت الدية فى ذلك الحين على ما جرى العرف به عشرة من الإبل . فقالت العرافة : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل ، فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ، ونجا ابنكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر ، قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل ، وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو لله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد الله يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ، فأخذوا يزيدون الإبل عشراً عشراً ، وفى كل مرة يقوم عبد المطلب يدعو الله ، حتى بلغ عدد الإبل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل .

فقالت قريش ومن حضر من الناس : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب . فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القدح على الإبل ، فأعادوا الكرة مرتين ، وفى كل مرة يخرج القدح على الإبل ، فنحرت الإبل ، ثم تركت ، لا يصد عنها إنسان ولا يمنع[1] .

(١) سيرة ابن هشام ص ١٥١ — ١٥٥ .

وهكذا كتب الله الحياة لعبد الله بن عبد المطلب ، ليكون والد الرسول العظيم محمد خاتم الأنبياء وكانت هذه هي أول مرة يفتدى بها عربي بمثل هذا العدد الكبير من الإبل ، ولذا شاعت القصة بين العرب جميعاً ، ترويها وترددها في مجالسهم ومجامعهم .

قصة زواج عبد الله بن عبد المطلب :

اطمأنت نفس عبد المطلب ، فقد فدى ابنه الحبيب عبد الله بمائة من الإبل ، وكان عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه[١] ، وإن لم يكن أصغرهم سناً ، كما تروى المصادر . فابن هشام يذكر أنه كان « أصغر بني أبيه[٢] » ، وربما يريد ابن هشام أن يذكر أن عبد الله كان أصغر أولاد أبيه حين أراد نحره والوفاء بالنذر ، فالمعروف أن حمزة بن عبد المطلب كان أصغر من عبد الله ، والعباس بن عبد المطلب كان أصغر من حمزة . وقد روت المصادر أن العباس قال : « أذكر أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها ، فجيء بي حتى نظرت إليه ، وجعل النسوة يقلن لي : قبل أخاك : قبل أخاك ، فقبلته . وفي هذا دليل على أن عبد الله لم يكن أصغر أولاد عبد المطلب[٣] .

انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فمر به على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى يقال لها أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت في وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٣ .
(٣) الروض الأنف .

مع أبى . قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك ، وقع علىّ
قال : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه[١] .
فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة
لاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وهو يومئذ سيد
يهرة ، نسبا وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل
فى قريش نسباً وموضعاً[٢] » .
روى الطبرى[٣] أن عبد الله دخل على زوجته آمنه « حين ملكها مكانه
عليها فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها حتى
المرأة التى عرضت عليه ما عرضت . فقال لها : مالك لا تعرضين على
م ما كنت عرضت علىّ بالأمس ؟ ! فقالت له : فارقك النور الذى
ن معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! وقد كانت تسمع من
ها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر واتبع الكتب حتى أدرك فكان فيما
ب من ذلك أنه كائن لهذه الأمة نبى من بنى إسماعيل » .
وتروى المصادر التاريخية أن كثيراً من الفتيات كانت تطمع فى
واج من عبد الله بن عبد المطلب فقد كان كما وصفه الطبرى « أجمل
ال قريش » ، ومن هؤلاء الفتيات فاطمة بنت مرة الخثعمية .

اة عبد الله بن عبد المطلب :

كانت قريش قبيلة تجارية ، تعتمد فى مواردها وحياتها على ما تدره
حلاتها التجارية إلى كل مكان فى العالم القديم وخاصة على رحلتى الشتاء

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٦ والطبرى جـ ٢ ص ٥ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٦ .
(٣) الطبرى جـ ٢ ص ٥ .

والصيف إلى اليمن والشام . ولذا كان الآباء يحرصون على تدريب أبنائهم الخروج مع هذه القوافل منذ شبابهم الباكر .

فرح عبد المطلب إذ أنقذ ابنه عبد الله إذ افتداه بمائة من الإبل وتضاعف سروره بعد زفاف عبد الله لآمنة بنت وهب . وأصبح عبد رب أسرة، وعليه أن يبدأ حياته العملية ، ويشترك فى نشاط قر التجارى ، ويخرج فى قوافلها ، ولذا أخذ يتهيأ للخروج فى قافلة قريش منضما إلى إخوته من بنى عبد المطلب ، تاركاً آمنة فى رعاية أبيه .

وكان عبد الله بعد زفافه قد أقام مع زوجته آمنة فى بيت أهلها ثلا أيام على عادة العرب ، حيث تم الزواج فى بيت العروس . فلما انت وإياها إلى منازل بنى عبد المطلب لم يقم معها طويلا ، إذ خرج فى تج إلى الشام وتركها حاملا . وكان التمر يمثل معظم ما تحمله هذه القافلة تجارة (١) .

وكانت آمنة قبل زواجها فى كنف عمها وهيب ، فلما زفت إ عبد الله أصبحت فى كنف زوجها ، حتى إذا سافر عبد الله ، وأصبحت وحيدة محزونة ، أخذ عبد المطلب يتردد عليها لزيارتها ، ويطلب من زوج هالة أن تزور آمنة لتؤنسها فى وحدتها وتخفف عنها آلام فراق زوجها .

ثم جاء أوان عودة القافلة ، وبدأت قريش تستعد لاستقبالها وق عادت بالخير العميم ، وأخذت آمنة ترقب عودة زوجها ، وخف شباب قريش يلقون القافلة قبل أن تبلغ الحرم ، وخرج إخوة عبد الله فيمن خرج ، ولكنهم عادوا وقد بدا الحزن والأسى على وجوههم ، حتى إذ سألهم عبد المطلب عما حدث ، أنبأوه بمرض عبد الله وتخلفه فى يثرب ليمرض عند أخواله من بنى النجار . وتألم عبد المطلب وخشى من أثر

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٧ .

ـمة على آمنة وحملها ، فندب أكبر أبنائه الحارث ليرحل إلى يثرب
ـحال ليباشر تمريض عبد الله . وقضى الجميع أياماً قلقة يتلهفون فيها
سماع نبأ عن مريضهم الحبيب ، ولكن الحارث عاد إلى القوم ينعى
عبد الله . فقد رحل الحارث إلى يثرب وهناك علم أن عبد الله مات
ن بها بعد شهر من رحيل القافلة إلى مكة .

وهكذا قضى عبد الله نحبه فى نصف العقد الثالث ، وهو فى ريعان
به وميعة صباه ، ولما يتمتع بشىء من مباهج الحياة سوى زفافه إلى
وسه وقضاء شهر ين معها . ودفن عبد الله فى بيت « تابعة » فى حى
عدى بيثرب ، ولا يزال ابنه محمد حملا مستكنا . وكان لنعيه أسوأ
ثر فى نفس عبد المطلب ، وقلب آمنة . ووضعا عزاءهما فيمن خلفه
ـ الله جنيناً فى بطن آمنة .

٨ ـ جد الرسول

مولد الهدى :

قضت آمنة فترة الحمل دامعة باكية ، لا يعزيها سوى ترقب ر
المولود المنتظر . ولكن آمنة وإن كانت قد فقدت حنان الزوج ، و
وجدت عند حميها عبد المطلب الرعاية والعناية . وإن كان المصاب واحد
وخاصة أن عبد المطلب قد تقدمت به السنون ، فوهنت صحته
وضعف بصره .

ثم كان مولد الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة ، فى دار لابن
عقيل بن أبى طالب ، وقد توارثها أبناء عقيل حتى باعوها لمحمد بن يوسف
أخى الحجاج فأدخلها فى داره وسماها البيضاء . أما القابلة التى ولد مح
صلى الله عليه وسلم على يديها ، فاسمها الشفاء ، وقد قالت : « لما ولد
آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدى » . وحضنته أم أيم
فكانت مربيته الأولى ؛ فأرضعته أمه آمنة بضعة أيام ، ثم أرضعته ثوي
جارية عمه أبى لهب ، الذى أصبح بعد البعثة أبغض الناس إلى ا
ورسوله .

بعثت آمنة إلى عبد المطلب تبشره بمولد حفيده ، وكان عند ما وص
النبأ السار يطوف بالكعبة فهرع إلى آمنة ، فقالت آمنة له : « إنه قد ول
لك غلام ، فأته فانظر إليه . فأتاه فنظر إليه وحدثته بما رأت حين حملت

ه وما قيل لها فيه ، وما أمرت به أن تسميه . فيزعمون أن عبد المطلب خذه ، فدخل به الكعبة ، فقام يدعو الله ، ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه ، فدفعه إليها ، والتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم لرضعاء[١] .

مرض المولود ثلاثة أيام ثم عوفى ، وأعتق أبولهب جاريته ثويبة حين بشرته بمولد محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت رضاعة محمد من ثويبة أياماً قليلة بلبن ابنها مسروح . وكانت ثويبة ظئراً محترفة أرضعت بضعة أطفال منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وأبو سالمة بن عبد الأسد ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء إخوته فى الرضاع . ولم يثبت أنها أسلمت سواء هى أو ابنها مسروح . ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يصلها من المدينة ، ولما فتح مكة سأل عنها وعن ابنها فعلم أنهما ماتا .

ينهى المؤرخون والنسابون نسب محمد إلى إسماعيل وإبراهيم ثم إلى نوح وآدم عليهم السلام . ولكن الرسول نهى عن أن يتجاوز النسب عن معد.[٢]

اختلف المؤرخون فى العام الذى ولد محمد صلى الله عليه وسلم فيه ، فعظمهم يذهب إلى أنه عام الفيل (٥٧٠ ميلادية) . ويذكر ابن عباس أن الرسول ولد فى عام الفيل . ويقول آخرون إنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة . ويذهب غير هؤلاء إلى إنه ولد بعد الفيل بأيام ، وبأشهر ، وبسنين يقدرها قوم ثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين .

واختلف المؤرخون أيضاً فى الشهر الذى ولد فيه الرسول ، وإن كانت

---

١) ابن هشام ج ٢ ص ١٦٠ .

٢) محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف بن قصى بن كلاب بن مره بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد .

كثرتهم تذهب إلى أنه ولد فى شهر ربيع الأول . وقيل : ولد فى المحرم . وقيل : ولد فى صفر والبعض يرجح شهر رجب ، على حين يرجح آخرون شهر رمضان .

كذلك اختلف فى تاريخ اليوم من الشهر الذى ولد الرسول فيه ، فقيل : ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ، وقيل لثمان ليال ، وقيل لتسع . ولكن معظم الآراء تتفق على أن الرسول الكريم قد ولد فى ثانى عشر من شهر ربيع الأول .

وكذلك اختلف فى الوقت الذى ولد فيه الرسول ، أكان نهاراً أم ليلا ، كما اختلف فى مكان ولادته فى مدينة مكة (١) .

ذكر المؤرخ ابن هشام (٢) فى سيرته : « ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل » .

وقال الزبير : كان مولده فى رمضان . وهذا القول موافق لقول من قال إن أمه حملت به فى أيام التشريق . ويذكرون أن الفيل جاء مكة فى المحرم وأنه صلى الله عليه وسلم ولد بعد مجىء الفيل بخمسين يوماً (٣) .

ويحدد المؤرخ المسعودى (٤) يوم مولد الرسول فيقول : « والذى صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوماً ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم فى سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من عهد ذى القرنين . وكان قدوم

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٧ .
(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٥٨ .
(٣) انظر الروض الأنف والطبقات الكبرى لابن سعد وتاريخ الطبرى .
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٠ .

أبرهه مكة لسبع عشر خلت من المحرم ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب ، الذى أول حجة الغدر ولستة أربعين من ملك كسرى أنوشروان . وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة » .

ويرى (كوسان دى بارسيفال) أن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فى اليوم الخامس والخمسين بعد هزيمة أبرهة الأشرم فى موقعة الفيل . وقد حقق المرحوم (محمود الفلكى المصرى) تاريخ مولد الرسول فقال إنه ولد فى صباح اليوم التاسع من ربيع الأول من سنة ٥٧١ ميلادية ولا غرابة فى الجمع بين الشهر العربى والسنة المسيحية ، لأن التاريخ الهجرى لم يبدأ به إلا بعد ذلك . ولكن الأشهر العربية كانت معروفة . والثابت أيضاً أن أمه حملت به فى الربيع ووضعته فى الخريف ، وقد دلت البحوث الحديثة أن الخريف فصل مواليد النوابغ[١] .

تحدث قيس بن مخرمة عن مولد الرسول الكريم فقال : « ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، فنحن لدان » . كما تحدث حسان بن ثابت ، شاعر الرسول ، عن ذكرياته يوم مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : « والله إنى لغلام يفعه ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب : يا معشر يهود ، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ، مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به »[٢] .

لا يعرف فى العرب من تسمى باسم (محمد) قبل الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة ، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه

---

(١) ثورة الإسلام ص ٢٨١ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٩ .

وسلم و بقرب زمانه وأنه يبعث فى الحجاز ، أن يكون ولداً لهم . وهم محمد ابن سفيان بن مجاشع ، جد الفرزدق الشاعر ، والآخر : محمد بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش ، والآخر محمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عندهم علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم و باسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ، ففعلوا ذلك .

وفى سابع يوم لمولد الرسول الكريم ، أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ودعا رجالا من قريش ، فحضروا وطعموا . فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمداً سألوه لم رغب عن أسماء آبائه ؟ فقال : أردت أن يكون محموداً فى السماء لله والأرض لخلقه .

روت المصادر القديمة كثيراً من الروايات ، ولا نرى بأساً من سرد بعضها . فتذكر هذه الروايات أن آمنة لم تتحمل أى مشقة فى حمل الرسول أو ولادته ، وقد انبعثت ليلة مولد الرسول أنوار عظيمة أضاءت السماء ، وارتجت السماء والأرض لمولده ، وغاضت مياه بحيرة ساوى وجفت جوانبها ، بينما فاضت مياه دجلة . فأغرقت الأراضى المحيطة بها ، واهتز عرش كسرى وسقط كثير من أبراجه . وفى تلك الليلة رأى قاضى فارس (أو الموبذان خادم النار الكبير عند الفرس فى رواية أخرى) فى حلمه أن فرساً عربية قد صرعت جملا شرساً ، وقص حلمه فى الصباح على كاهن فارس ، ففسره بأن بلاد الفرس ستهدد بخطر قادم من بلاد العرب .

وفى تلك الليلة الخالده ، انطفأت نيران زرادشت المقدسة التى ظلت تشتعل دون توقف منذ آلاف السنين ، وسقطت جميع أصنام العالم على الأرض ، وطاردت الملائكة الشياطين الذين يسكنون النجوم ، وأرغموهم

هم وزعيمهم إبليس على أن يسكنوا قاع البحر [١].

وقيل أيضاً أن محمداً ولد عند وجود المشترى ، وهو دليل السعد والمجد ، وأن سنة ولادته كانت سنة الفتح والخير ، لأن قريشاً كانت قبل ذلك فى جدب وضيق ، فاخضرت الأرض وأثمرت الأشجار وعم الخير العميم أرجاء مكة .

محمد فى كفالة عبد المطلب قبل وفاة آمنة :

كان محمد فى كفالة جده عبد المطلب منذ مولده ، حتى توفى عبد المطلب ، فيذكر ابن هشام [١] : « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم ، فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين ، توفيت أمه آمنة بنت وهب » . وهكذا عوض الله محمداً بحنان أمه وجده عما فقده من حنان الأب .

عهدت آمنة وعبد المطلب بمحمد إلى حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية لترضعه من لبنها . وحليمة هذه امرأة فقيرة من بنى سعد خرجت مع زوجها وابنها وعشرة من صويحباتها خرجن إلى مكة يطلبن الرضعاء عند أشرافها . وكان من عادتهن القدوم إلى مكة مرتين فى السنة ، فى الربيع والخريف يعرضون على الأغنياء قيامهن بإرضاع أطفالهم ، نظير أجر يستعينون به على الفقر .

وصفت حليمة رحلتها إلى مكة فقالت : « وذلك فى سنة شهباء لم تبق

---

١) انظر كتاب حياة محمد لأرفنج من ترجمتنا ص ٣٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٨ .

لنا شيئاً ، فخرجت على أتان لى قمراء(١) ، معنا شارف(٢) لنا ، والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثدىي ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أدمت بالركب ، (٣) حتى شق ذلك عليهم ، ضعفاً وعجفاً . حتى قدمنا مكة . نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه . إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى . فكنا نقول : يتيم . وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً ، غيرى . فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى —أى زوجها— والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره(٤)» .

اختلف المؤرخون والكتاب عن السبب الذى دفع بآمنة إلى أن تعهد إلى حليمة بإرضاع وليدها بدلا من أن تقوم هى بإرضاعه . يعلل الدكتور هيكل(٥) ذلك بأن أشراف العرب من أهل مكة قد اعتادوا أن يبعثوا أبناءهم للبادية فى اليوم الثامن من مولدهم . ثم لا يعودون إلى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، ومن قبائل البادية من لها فى المراضع شهرة ،

---

(١) القمره : لون إلى الخضرة أو ببياض فيه كدرة .
(٢) الشارف الناقة المسنة .
(٣) أى أطلت المسافة لتمهلهم عليها .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٦٣ .
(٥) حياة محمد ص ٧١ .

ومن بينها قبيلة بنى سعد . أما المؤرخ (واشنطون أرفنج)[١] فيعلل قيام حليمة بإرضاع محمد بدافعين ، أولهما أن حزن آمنة لوفاة زوجها أدى إلى قلة اللبن فى ثدييها . وثانيهما أن جو مكة كان لا يناسب صحة الأطفال . ولذا التمست آمنة لطفلها مرضعاً من بين نساء قبائل البدو المجاورة .

ونحن نعلل ذلك بالعوامل الثلاث التى ذكرها المؤرخان . فقد كان أشراف مكة فعلا يدفعون أبناءهم لمراضع البادية ، بدليل قدوم النسوة العشر صويحبات حليمة ، كما أن آلام وأحزان آمنة لفقدها زوجها قد أثرت حتماً فى صحتها وجعل لبن ثدييها شحيحاً ، بدليل أن ثويبة قامت بإرضاع محمد بعد مولده . كما أن جو مكة الحار الخانق كان لا يناسب صحة الأطفال حديثى الولادة . وكانت إقامة الطفل فى البادية وسط الأعراب يجعله أفصح لساناً ، وأقوى صحة ، مصطبغاً بالصبغة المعدية ، كما قال عمر بن الخطاب : تمعددوا تمعززوا واخشوشنوا . وقد سأل أبو بكر الصديق يوماً الرسول صلى الله عليه وسلم : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ؟ فأجاب الرسول : وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت فى بنى سعد .

علق أحد الكتاب المحدثين [٢] على رواية ابن هشام — التى ذكرناها — عن قدوم حليمة وأخذها محمداً، فقال : وهذه الرواية تجعل الفضل فى أخذ الرضيع لغريزة المنافسة عند حليمة وعاطفة الاستبشار فى قلب زوجها . أما عبد المطلب فبمعزل عن الواقعة ، وليس هذا طبيعياً . ولعل ما رواه القاضى عياض فى الشفاء أقرب إلى ما وقع ، فقد قالت حليمة : استقبلنى عبد المطلب فقال من أنت ؟ فقالت : أنا امرأة من بنى سعد . فقال ما اسمك ؟ قالت : حليمة ، فقال : بخ بخ سعد وحلم خصلتان

---

(١) انظر كتاب حياة محمد لأرفنج من ترجمتنا ص ٣٣ .
(٢) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ٢٨٥ .

فيهما خير الدهر وعز الأبد ، يا حليمة إن عندى غلاماً يتيماً ، وقد عرضته على نساء بنى سعد ، فأبين أن يقبلنه وقلن (ما عند اليتيم من الخير ، إنما نلتمس الكرامة من الآباء) فهل لك أن ترضيعه فعسى أن تسعدى به ؟ فقالت : ألا تذرنى حتى أشاور صاحبى ؟ فوافق . فعادت حليمة إلى عبد المطلب فوجدته فى انتظارها ، فقالت له : هلم الصبى . فتهلل وجه الجد فرحاً وأدخلها بيت آمنة ، فرحبت بها ، وأدخلتها الغرفة التى فيها الطفل محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو مدرج فى ثوب صوف أبيض وتحته حريرة خضراء ، راقد على ظهره يغط ، فأشفقت أن توقظه من نومه لحسنه ، فوضعت يدها على ظهره ، فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه إليها ، فقبلته بين عينيه وأخذته .

خرجت حليمة بمحمد إلى بيتها بالبادية فى واد بين الجبال . وترى حليمة الكثير عن الطفل الذى تعهدت بإرضاعه ورعايته . ففى خلال عودتها من مكة ، كانت أتانها تسبق سائر الحمر ، فكانت صويحبات حليمة يقلن لها : يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ارفقى علينا فى السير ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ، تخفضك طوراً وترفعك طوراً آخر ؟ ! ولاغرو فقد كانت هذه الأتان تحمل على ظهرها سيد الأنبياء والرسل . وفى الطريق كانت الأغنام تحنى للطفل رؤوسها ، حتى إذا نام فى فراشه ، وتطلع إلى القمر ، كان القمر ينحنى له احتراماً .

كانت العناية الإلهية ، كما يقول المؤرخون العرب ، ترعى حليمة طوال فترة بقاء الطفل فى رعايتها ، فلم تجف الآبار والعيون أبداً ، وظلت المراعى دائماً خضراء ، وتضاعف عدد أغنامها عشر مرات ، وعم الخير أرضها وخيم

---

٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٦٤ .

لام على بلدها ، فروت حليمة : « ثم قدمنا منازلنا ، من بلاد بنى
د ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها . فكانت غنمى تروح
حين قدمنا به معنا ، شباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب
ان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا
لون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ،
وح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً
آ »(١) .

ويروى المؤرخون العرب الكثير عن قوة هذا الطفل البدنية والروحية فى
ذه السن المبكرة ، فقد استطاع أن يقف على قدميه وعمره ثلاثة شهور ،
ستطاع العدو حينما أتم سبعة أشهر ، حتى إذا أتم عشرة شهور استطاع
ن يشارك الأطفال الآخرين فى رياضتهم واستخدام القوس والسهم .
استطاع الكلام والفهم وعمره ثمانية شهور ، وبعد شهر تكلم بطلاقة
حكمة أدهشت الآخرين(٢) .

كان محمد بعيداً عن الأقذار ، وكان لا يبكى ، ولا يصرخ قط ،
لا إذا ترك عريان فتعرض لأنظار الآخرين . أما إذا قلق أثناء الليل ولم
ينم فكانت حليمة تخرج به من الخيمة ، فلا يلبث أن ينظر فى إعجاب إلى
النجوم فيستولى عليه السرور ، حتى إذا شبعت عيناه من هذا المنظر
أطبقهما ، وأخذ النوم بمعاقد أجفانه .

كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مباركة فى جميع مراحلها .
وإذا كان قد أصبح — فى سن الأربعين — المنارة الهادية ، والأمل الوضاء
لهداية البشر ، فإن حياته قبل ذلك كانت خيراً وبركة بالنسبة لكل الذين

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٤ .
(٢) أرفنج : حياة محمد ص ٣٤ .

اتصلوا به ، وليس غريباً أن تبعث الطفولة الباسمة الأمل والرجاء ، فيتف
الإنسان و يحفزه التفاؤل ، فيعمل و يتخطى العقبات ، ويجنى ثمار د
شهياً لذيذاً ، فيشعر براحة وطمأنينة ، ويعزو ذلك — محقاً — إلى العا
الجديد الذى دخل حياته : الطفولة الباسمة وتأثير الأشخاص ، ص
كانوا أم كباراً ، فى بيئاتهم وأوساطهم معروف لا ممارأة فيه ، ولعلنا
نظرنا إلى ما روته الروايات التى عددناها لا نجد فيه من الغرابة ما يحم
على التردد فى قبوله(١) .

أتمت حليمة رضاع محمد حولين كاملين ، وهو ما نص عليه القرآ
بعد ذلك فى سورة النساء : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين)
وفى ختام العامين عادت به حليمة إلى مكة أحرص ما تكون على مكثه فى
بيتها لما رأته من الخير والبركة ، وهو جائز عند العرب على الطيرة والفأل
فقالت لأمه : حبذا لو تركت ابنى عندى حتى يغلظ . ودعمت حجتها فى
استبقائه بالخوف عليه من وباء مكة ووخمها وقيظها ، فترددت الأم ث
وافقت على عودته إلى البادية ، لما رأته من حسن صحته وكمال نموه .

وعندما أصبح محمد فى الثالثة من عمره ، وبينما كان يلعب فى الحقول
مع أخيه فى الرضاعة ، ظهر له ملكان يشع منهما النور ، فأرقدا محمداً فى
رفق على الأرض ، وشق أحدهما ، وهو جبريل ، صدره ، ولكن بدون
أن يسبب له ألماً ، ثم نزعا قلبه وطهراه من الحقد والشر الذى زرع فى
القلوب منذ جدنا آدم ، والذى كان يؤدى بالبشر إلى ارتكاب الآثام .
ثم ملأ الملكان قلبه بالإيمان والمعرفة والنور ثم أعاداه إلى مكانه فى صدر
الطفل .

---

(١) اتين دينيه : محمد ص ٦٤ .

روت حليمة قصة محمد والملكين ، فقالت : « فرجعنا به ، فوالله إنه
قدمنا به بأشهر مع أخيه ، لنى بهم (١) لنا ، خلف بيوتنا ، إذ أتانا
يشتد(٢) فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى ، قد أخذه رجلان ،
ا ثياب بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه . فهما يسوطانه(٣) .
: فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه . قالت :
ته ، والتزمه أبوه . فقلنا له : مالك يا بنى ؟ قال : جاءنى رجلان
ا ثياب بيض ، فأضجعانى ، وشقا بطنى . فالتمسا فيه شيئاً لا أدرى
. قالت : فرجعنا به إلى خبائنا(٤) » .

ذكر ابن هشام أن الرسول عليه الصلاة والسلام أجاب على بعض
به وكانوا قد سألوه : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك . فقال الرسول
ى الله عليه وسلم : «نعم أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ،
ت أمى حين حملت بى ، أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ،
رضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا ،
ى بهماً لنا ، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض ، بطست من ذهب
ءة ثلجاً ، ثم أخذانى ، فشقا بطنى ، واستخرجا قلبى ، فشقاه ،
تخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك
ج ، حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته . فوزنى
م فوزنهم ، ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزنى بهم فوزنتهم ، ثم قال :
بألف من أمته ، فوزنى بهم فوزنتهم ، فقال : دعه عنك . فوالله

---

(١) البهم : الصغار من الغنم .
(٢) اشتد فى العدو : أسرع .
(٣) أسوطه : إذا ضربت بعضه ببعض .
(٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥ .

لو وزنته بأمته لوزنها[١] » .

يعلق المؤرخان (اتين دينيه و (سليمان إبراهيم الجزائرى) فى كت
(محمد [٢]) على هذه القصة فيقولان إن القرآن الكريم سجل هذه اح
فى قوله :

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * ووَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ
الذى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ *

وأن هذه القصة تؤول تأويلا رمزيا ، وأنها تعنى أن الله شرح ص
محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد ، إذ أزال عنه منذ الطفولة وزر الوثنية

خشى الحارث زوج حليمة ، على حياة محمد فقال لزوجة
ياحليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قدأصيب ، فألحقيه بأهله ،
أن يظهر ذلك به .

ويروى ابن هشام[٢] أنه مما جعل حليمة تحرص على إعادة مح
لأمه « أن نفراً من الحبشة نصارى رأوه معها ، حين رجعت به بعد فطام
فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لتأخذن هذا الغلام
فلنذهبن به إلى ملكنا و بلدنا ، فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعر
أمره ، فزعم الذى حدثنى ، أنها لم تكد تنفلت به منهم » .

خرجت حليمة بمحمد إلى مكة ، وسار الطفل ، وقد بلغ من العم
أربع سنوات إلى جانبها ، فلما اقتربا من مكة اختلطا بكثير من السائر
فى الطريق الذاهبين إلى السوق ، أو إلى الحج بالكعبة ، وكان الليل
أسدل ستوره ، فلم تشعر حليمة وسط الناس إلا وهى وحدها ، ولم تسم

---

١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٦ .
٢) محمد رسول الله ص ٦٦ .

لها ظلمة الليل بالعثور عليه ، برغم بحثها الطويل ونداتها الحار المتكرر .

وأسرعت حليمة تعدو إلى عبد المطلب ، فأمكنه ، بما كان له من جاه ، أن يبعث فى إثر محمد مهرة الباحثين ، وامتطى هو صهوة جواده يشاركهم فى البحث وهو ينشد :

يا رب رد لى ولدى محمدا أردده ربى واصطنع عندى يدا

وما لبث أحد متعقبى الأثر أن وجد فى وادى تهامة صبيا جالساً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها .

ويروى ابن هشام[١] أن اللذين وجدا محمداً هما ورقه بن نوفل بن أسد ورجل آخر من قريش « فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فجعله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوذه ، ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة » .

توجهت آمنة بالسؤال لحليمة : ما أقدمك به ، وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟ فأجابت حليمة : قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علىّ ، وتخوفت الأحداث فأديته إليك كما تحبين غير أن الاضطراب والخوف كانا واضحين على وجه المرضع ، فلم تصدق آمنة حديثها وقالت : إنك تخفين عنى الحقيقة ، فاصدقينى الخبر . ولم تدعها حتى أخبرتها ، وأعادت ما قال زوجها فأساء هذا الرأى الأم ، فقالت آمنه : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ فأجابت حليمة : نعم . قالت آمنة : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لابنى هذا شأناً .

ثم أخبرتها آمنة بما حدث من ظواهر عجيبة أثناء حمله ووضعه ، وبعد أن شكرت لحليمة إخلاصها كافأتها على حسن صنيعها ، واحتفظت بابنها ، وقد أصبحت صحته من القوة بحيث لم تعد تخشى عليه هواء مكة الفاسد[٢] .

---

١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٧ . ٢) اتين دينيه : محمد ص ٦٧ .

وهكذا أقام محمد هذه السنوات فى بنى سعد ، ينهل من جو الصحراء الطليق روح الحرية والاستقلال النفسى ، ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة أحسن التصفية ، حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه : أنا أعربكم ، أنا قرشى ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر . وتركت هذه السنوات الخمس فى نفسه أجمل الأثر وأبقاه . كما بقيت حليمة وبنى أهلها موضع محبته وإكرامه[١] .

أما إخوة محمد فى الرضاعة ، فهم عبد الله ، وأنيسة وحذافة أولاد الحارث بن عبد العزى زوج حليمة ، وحذافة هى الشيماء ، وكانت تتولى الإشراف على محمد مع أمها[٢] . وكانت لعبة الرسول المفضلة فى البادية ، لعبة العظمة البيضاء ، وهى أن يرمى بعظمة شاهقة البياض فى الظلام إلى أقصى ما تستطيع اليد ، فمن يبصر بها على بعدها يكون رئيس الجماعة .

زارت حليمة محمداً بعد ذلك مرتين ، الأولى بعد زواجه من خديجة تشكو إليه ضيق العيش . فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأساً من الغنم وبكرات من الإبل ، والمرة الثانية بعد موقعة حنين فبسط لها رداءه ، وفى ذلك اليوم رفع ثوبها ووضع يده على صدرها ولمس بيديه الكريمتين ثدييها الكريمين اللذين أرضعاه .

وقعت الشيماء ، أخت الرسول فى الرضاع ، فى الأسر ، فكانت من حملة السبى من هوازن فقالت للمسلمين : أنا أخت صاحبكم . فلما قدموا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألها وما علامة ذلك ؟ قالت عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك (أى حاملته على ظهرها)

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٧٤ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦١ .

فعرف الرسول العلامة فقام لها وبسط لها رداءه وأجلسها ودمعت عيناه .

حنان الجد بعد فقد الأم :

مضت السنون . ومحمد فى رعاية أمه وعناية جده . ولكن شاءت الأقدار أن يحرم محمد من حنان الأم كما حرم بالأمس من حنان الأب فقد رحلت آمنة بابنها محمد إلى يثرب ليرى أخوال أبيه من بنى النجار ، وصحبت معها جاريتها (أم أيمن) .

حتى إذا وصلوا جميعاً إلى يثرب . أشارت آمنة لولدها إلى البيت الذى مات أبوه فيه والمكان الذى دفن به . فكان ذلك أول معنى لليتم انطبع فى نفس الصبي وأطالت الأم الحديث عن الأب الكريم الذى افتقدوه وهو فى ريعان الشباب . وقد كان النبى بعد هجرته إلى يثرب (المدينة المنورة) يقص لأصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه . حديث محب للمدينة ، محزون لما تحوى القبور من أهله بها .

مكثت آمنة ومحمد فى يثرب شهرا . ثم بدآ رحلتهما إلى مكة ، حتى إذا كانوا فى منتصف الطريق بين يثرب ومكة ، مرضت آمنة بالأبواء ، وما لبثت أن فارقت الحياة ، ودفنت بالأبواء .

وأصبح على الجارية الحبشية (أم أيمن) مهمة مصاحبة محمد إلى جده عبد المطلب فى مكة . وكانت أم أيمن تحب محمداً وتخلص له ولأسرته .

عاد الطفل إلى مكة منتحباً وحيداً ، يشعر بيتمه الذى ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدة وألما . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم لفقد أبيه وهو جنين ما يزال ، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب كما ذهب أبوه

وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتم كاملا (١) .

كان عبد المطلب يعمل بالأمس على تعويض محمد عما فقده من حنان الأب ، أما اليوم فكان عليه أن يعوضه عن حنان الوالدين . وأصبح محمد موضع التكريم والعطف ، ذلك أن شبهه لوالده عبد الله كان يأخذ فى الازدياد مع الأيام .

ويقص ابن هشام قصة تبين كيف كان عبد المطلب يضفى حنانه وتكريمه لمحمد ، فيروى : « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنيه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام صغير حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع » .

عبد المطلب والتبشير بنبوة محمد :

هل كان عبد المطلب يتوقع أن ذلك اليتيم الذى يعيش فى كنفه سيصبح سيد المرسلين وخاتم الأنبياء ؟

لم يخل كتاب من الكتب السماوية قبل مبعث الرسول من التبشير بظهور النبى محمد . وكانت الأخبار بذلك مستفيضة فى الأمم ، ولعلها من الأسباب التى دعت اليهود والنصارى إلى استيطان أرض الجزيرة العربية ،

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٧٥ .

، وصفتها الأسفار المنزلة ، بأنها أرض النبي المنتظر[١].

تروى المصادر العربية القديمة كثيراً من الروايات التى تتحدث عن شار نبوءات كلها تبشر بقرب ظهور نبى كريم .

ومن هذه الروايات ، ما يروى أن كاهنة قريش سودة بنت زهرة انت عمة وهب والد آمنة أم النبي ، وقد قالت يوماً لبنى زهرة : فيكم ير أو امرأة نذيرة أو تلد نذيراً له شأن وبرهان منير . ولذا اختار د المطلب آمنة لابنه عبد الله .

كما تذكر هذه الروايات أن عبد المطلب رحل إلى اليمن ، وهناك رآه عد أحبار اليهود ، وفحص هذا منخريه ثم قال : أنا أشهد أن فى إحدى يك ملكاً وفى الأخرى نبوة ، وإنما نجد كلا من الملك والنبوة فى بنى زهرة كيف ذاك ؟ وأشار هذا اليهودى على عبد المطلب بالزواج من بنى زهرة ذا تزوج عبد المطلب من هالة ، وزوج ابنه عبد الله من آمنة ، وكان واج الأب والابن فى مجلس واحد ، والعروسان من بنى زهرة .

وقد مر بنا كيف وصفت آمنة لحليمة السعدية حملها ومولد محمد ليه الصلاة والسلام ، فقالت : « رأيت حين حملت به ، أنه خرج منى ر أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت ن حمل قط كان أخف على ، ولا أيسر منه ، وقد وقع حين ولدته ، إنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء[٢] .

وتذكر الروايات أنه كانت تبدو على محمد فى طفولته علامات العظمة

---

١) مولاى محمد على : محمد رسول الله ص ٣٠ .
٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٥ .

والنجابة وتنبأ له خاله ، وكان له خبرة بالتنجيم ، بأنه سيكون له شأن عظيم .

وروى المؤرخ أبو الفدا(١) : « ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مختوناً مسروراً ، فأعجب جده عبد المطلب وحظى عنده ، وقال : ليكونن لابنى هذا شأن » .

وتذكر الروايات أيضاً أنه عند مولد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كان فى مكة يهودى يدعى يوسف ، فقال لبعض وجوه قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلم . قال : احفظوا ما أقول لكم ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة . وهو منكم على كتفيه شامة فيها شعيرات متواترات كأنهن عرف فرس ، وتلك هى خاتم النبوة ، وتوجه الجميع إلى بيت آمنة وقالوا لها : أخرجى إلينا ابنك. فأخرجته ، وكشفت عن ظهره ، فرأى تلك الشامة ، فخر مغشيا عليه . فلما أفاق ، قالوا ويلك مالك ؟ ! قال : ذهبت النبوة من بنى إسرائيل ! !

وكان فى مكة راهب مسيحى يدعى (عيص) يترقب مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يقول : « تدين له العرب ، ويملك العجم أرضها وبلادها ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن خالفه أخطأ حاجته ، وإن نجمه طالع البارحة » . حتى إذا ولد محمد قال الراهب لعبد المطلب : احفظ لسانك فإنه لن يحسد حسده ، ولن يبغى على أحد كما يبغى عليه ، وإن طال عمره لا يبلغ السبعين ؛ يموت قبل إحدى وستين أو ثلاث وستين .

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١١٠ .

وروى ابن هشام[١] أن حليمة السعدية ردت الرسول إلى أمه وأخبرتها
نفراً من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا
، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام . فلنذهبن
ملكنا وبلدنا ، فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره » .
عت حليمة تهرب بالطفل الصغير العظيم .

تروى الروايات أن عبد المطلب كان قد توجه إلى اليمن على رأس
لتهنئة سيف بن ذى يزن الحميرى لنجاحه فى إجلاء الأحباش عن
اليمن ، فقال سيف لعبد المطلب : ولد ولد اسمه محمد ، يموت أبوه
، ويكفله جده وعمه ، يخمد النيران (أى نيران المجوس)، ويكسر
ان ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه من اليهود فإنهم أعداؤه ، واطوما
كرته لك عن قريش لئلا تدخلهم النفاسة فينصبون له الحبائل وهم
ين ذلك وأبنائهم ، ويثرب دار ملكه ، واستحكام أمره ، وموضع
.

وروى ابن هشام[٢] أن عبد المطلب كان يقول لأبنائه حينما يحاولون
محمد ، وهو طفل صغير ، من الجلوس على فراش جده عند الكعبة :
ابنى ، فوالله إن له شأناً .

وكان اليهود العرب يتوقعون ظهور نبى ، وكانوا يتوعدون به الوثنيين ،
هم كانوا يظنون أن النبى يظهر من بين بنى إسرائيل وحينما هاجر محمد
الصلاة والسلام من مكة إلى يثرب قال ليهود بنى قينقاع : « يا معشر
، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فوالله إنكم لتعلمون

---

١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٧ .
٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٨ .

أنى رسول الله تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم »[١] .

ونحن نجد فى القرآن الكريم آيات مباركة تؤيد فكرة التبشير جديد ، يأتى بكتاب منزل . وكان أهل الكتاب ينتظرون ظهور ليهديهم ، ولما ظهر هذا النبى الموعود لم يهتدوا بهديه .

جاء فى سورة البقرة :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

ومن هذه الآيات الكريمة :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٦ ، المقريزى : أمتاع الأسماع ص ١٠٤ .

٧ ـ خاتمة حياة مجيدة

ة عبد المطلب :

أصبح عبد المطلب شيخاً كبيراً ، فضعفت صحته ، وفقد بصره كن تلك الكارثة لم تؤثر فى حياته أو عزيمته ، واستمر عبد المطلب رمزاً جد ومكارم الأخلاق .

حدث أن ركباً من جذام فقد رجلا منهم غالته بيوت مكة ، فلقوا افة بن غانم فربطوه وأخذوه أسيراً بدلا من رجلهم المفقود فالتقى الراكب د المطلب ، وهو شيخ ضرير يقوده ابنه أبو لهب ، فلما بصر به حذافة ف به ، فقال عبد المطلب لابنه : ويلك ، ما هذا ؟ فقال أبو لهب : ا حذافة بن غانم مربوطاً مع ركب . فقال عبد المطلب : ألحقهم سألهم ما شأنهم . فلحقهم وسألهم وعاد وأخبره فقال له : ألحقهم لا أم واعطهم ما بيدك من مال وأطلق الرجل . فلحقهم ورهن رداءه ووعدهم دية حسنة . فأطلقوا حذافة وسمع عبد المطلب صوته وقال له : ها أنا ذا ى أنت يا ساقى الحجيج أردفنى فأردفه خلفه حتى دخل مكة . وكافأه ذافة بقصيدة مطلعها :

ر شيبة الحمد الذى كان وجهه يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

شمل عبد المطلب حفيده محمداً بالعطف والرعاية ، وعوضه عن ان الوالدين ، ولكن القدر كان يخبىء مصاباً آخراً . فقد شعر عبد المطلب

بالكهولة ، فوهنت صحته ، وعمى بصره ، وأدرك أن منيته قد قربت ورأى أن يختار ابنه أبى طالب ليكفل محمداً بعد وفاته .

ويعلل المؤرخ الطبرى[١] اختيار عبد المطلب لابنه أبى طالب د أبنائه الآخرين بقوله : « وكان عبد المطلب يوصى برسول الله صلى الله ع وسلم عمه أبا طالب ، وذلك أن أبا طالب وعبد الله أبا رسول الله صلى ا عليه وسلم كانا لأم فكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله صلى ا عليه وسلم بعد جده ، وكان دائماً معه » .

ذكر المسعودى[٢] أن عبد المطلب أوصى ابنه أباطالب بمحمد ص الله عليه وسلم وأنشد :

أوصيت من كنيته بطالب با بن الذى قد غاب ليس بآيب

وما لبث أن توفى عبد المطلب وهو فى الثمانين من عمره ، ومحمد فى الثامنة ما يزال. وحزن محمد لموت جده بما لا يقل عن حزنه لموت أمه حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعش جده إلى مقره الأخير ، وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له ، مع ما لقى بعد ذلك فى كفالة عم أبى طالب من عناية ورعاية ، ومن حماية امتدت إلى ما بعد بعثه ورسالته ودامت بعد ذلك إلى أن مات عمه .

وكان موت عبد المطلب لبنى هاشم جميعاً ضربة قاسية . لم يكن من أبنائه من كان فى مثل مكانته عزماً وقوة أيد وأصالة رأى وكرماً وأثراً فى العرب جميعاً . ألم يكن يطعم الحجاج ويسقيهم ويبر أهل مكة جميع إذا أصابهم شر أو أذى . وهاهم أولاد أبنائه لم يصل أحد منهم إلى مكانته

---

(١) الطبرى جـ٢ ص ٣٢ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٢ .

د كان فقيرهم عاجزاً عن مثل عمله ، وكان غنيهم حريصاً على ماله. لك ما لبث بنو أمية أن تهيئوا ليأخذوا المكانة التى طمعوا فيها من قبل ين أن يخشوا من بنى هاشم مزاحمة تخيفهم[1].

لقد تغيرت أحوال بنى عبد المطلب بعد وفاته تغيراً محسوساً ، ولو لم كن أبو طالب على رأسها لهوت من عليائها كما تهوى فى كل مجتمع عشيرة يلة قليلة المال . ولكن حزمه وشممه وقوة إرادته حفظت كيان الأسرة عانت على تعهد محمد حتى بعث .

شعر محمد بالألم والأسى فقد مات جده الحبيب بعد أن مات أبوه ون أن يراه ، وبعد أن شهد أمه وهى تفارق الحياة . كل هذه الأحداث هدتها طفولته تباعاً ، وفى غير رحمة ، وهوادة . وأقوى ما يؤثر فى النفس لإنسانية ما ينطبع عليها فى أيامها الأولى ، وهذا هو الذى ألقى ظلا خفيفاً ن الحزن على وجه محمد الرسول . حدث أبوهالة قال : « كان رسول الله واصل الأحزان . دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير اجة ، طويل السكوت » .

وهذا ما جعله عزوفاً عن المشاركة فى اللهو كما تحدثت بذلك كتب سيرة ، وإن لم تنسبه إلى طبيعة الحوادث التى مرت به ، وتركت هذا الأثر ى نفسه .

أصبح محمد فى كفالة عمه أبى طالب ، ولم يكن أكبر إخوته سنا ، م يكن أكثرهم مالا ، فقد كان العباس أعظم ثراء وإن كان على ماله ريصاً ، لذلك احتفظ بالسقاية دون الرفادة . فلا عجب أن كان

---

(١) محمد عطا : الدعوة التحريرية ص ٣٤ .

أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم فى قريش مكانة واحتراماً ، ولاعجـ أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده . وقد أحب أبو طالـ ابن أخيه كحب عبد المطلب له ، بل كان يقدمه على أبنائه . وكان يح فيه من الذكاء والسمو والنبالة ما يجعله دائماً قريباً من نفسه وقلبه .

تحدث ابن هشام(١) عن ساعات عبد المطلب الأخيرة فقال « إن عبد المطلب لما حضرته الوفاة ، وعرف أنه ميت ، جمع بناته ، وكر ست نسوة : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة وأروى، فقال لهن : ابكين علىّ ، حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت » .

وقامت بنات عبد المطلب ينشدن الشعر يبكين أباهن ، حتى إذ انتهين جميعاً من الإنشاد ، أشار عبد المطلب برأسه وقال : هكذ فأبكينى .

لم يبق لمحمد بعد أبويه غير حاضنته أم أيمن ، جارية أبيه عبد الله ، التى شهدت ليلة الوضع ، والتى ما كادت ترى الطفل حتى يلقى الله حبـ فى قلبها ، ويمتلىء قلبها عطفاً عليه وشفقاً به ، وإذا هى تحضن الطفل وتحنو عليه ، وإذا هى تغمره بصنوف من الحنان والمحبة والبر ، فإذ ما أخذته المرضع إلى البادية ، أسقط فى يدها وتولاها من الحزن شىء كثير .

فإذا ما عاد الطفل إلى مكة ، وتوفيت أمه بعد ذلك ، خلص اليتيم إلى الحاضنة من دون الناس ، فتقف نفسها عليه ، وتختصه بحبها وحنانها كله ، وهى أمة حبشية ، هذه الحاضنة ما عرفت الحنان والحب والعطف

---

١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٦٩ .

إلا فى هذا الطفل ، ولا تفهمت ما فيها من المعانى الرائعة إلا حين رأت اليتيم واختصت به (١).

بعد وفاة عبد المطلب تولى زمزم والسقاية العباس بن عبدالمطلب ، وهو أحدث إخوته سنا ، فلم يزل يتولاها حتى ظهر الإسلام . فأقرها الرسول صلى الله عليه وسلم له .

شخصية عبد المطلب وصفاته :

تمثلت فى شخصية عبد المطلب عدة جوانب ، فهو جد الرسول ، وعظيم قريش ، ورأس بنى هاشم ، وزعيم مكة ، وسادن الكعبة ، والزائد عنها ضد الهجوم الحبشى وعاش عبد المطلب ثمانين عاماً حفلت بالأحداث الجسام ، وشهدت ضروباً عديدة من عظمته وشجاعته وحكمته .

تجلت عظمة عبد المطلب فى مظاهر عدة . فقد نجح فى أن يدعم الوحدة بين صفوف قريش ، فبدت أمام جميع القبائل وحدة متماسكة ، مما جعل لواءها مرفوعاً بين هذه القبائل . وقاد عبد المطلب نشاطاً تجارياً واسع النطاق فى الجزيرة العربية ، مما أدى إلى رخاء قريش وارتقاء حضارتها وارتفاع شأنها ، وأصبحت مكة سوقاً للمنتجات العالمية ومركزاً حضارياً عمرانياً . وازدهر موسم الحج ، فقد ركز عبدالمطلب جهوده فى توفير الماء والطعام للحجاج ، وخاصة بعد كشفه عن بئر زمزم ، فأقبل الحجاج من كل حدب وصوب ، وأبدى عبد المطلب شجاعة وثباتاً خلال غزو الأحباش لمكة ، حتى أصبحت شجاعته مضرب الأمثال . وكان كريماً

---

(١) الحضارة الأموية ص ١٠٦ .
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٧٩ .

بذل معظم ماله لإطعام الحجاج وسقايتهم ، إلى جانب ما كان يجمعه من القرشيين ، وقدم المائتى بعير التى حازها جنود أبرهة للكعبة ، فنحرها عند الكعبة وأطعمها لمن حضر .

يذكر بعض المؤرخين أن عبد المطلب لم يكن ثريا موسراً . ولكن المؤرخ (ربرتسن سميث [١]) يقول : إن عبدالمطلب لم يكن فقيراً ، وهو رأس بنى هاشم ، ويدلل على صحة ما يقول بسند مخطوط على تاجر من صنعاء يقر فيه بدين لعبدالمطلب قيمته ألف درهم فضة ، والسند بخط عبد المطلب نفسه ، وقد عثر على هذا السند فى بيت مال المأمون العباسى فى سنة ٨١٢ ميلادية . وإذن لا يكون الرجل الذى يقرض دراهم الفضة بالألوف خارج وطنه بالمعوز أو الفقير .

ولا شك أن عبد المطلب كان يمتلك آلافاً من الإبل . وأن المائتى بعير التى استولى الأحباش عليها كانت تمثل جزءاً يسيراً من إبله . كما كانت قوافل عبد المطلب ترحل إلى الشام واليمن ، يقودها أبناؤه . وكان بعض أولاد عبد المطلب على جانب كبير من الثراء ، فقد كان العباس يمتلك عقارات كثيرة فى مدينة الطائف كما حاز الزبير مالا كثيراً ، فقد اشتغل بحركة النقل فى مكة ، وهى من أهم مصادر الربح . كما كان أبو طالب بزازاً وعطاراً يبيع الطيب ، وكان يشكو كثرة العيال لا قلة المال .

كان عبد المطلب على جانب كبير من العلم والثقافة ، فقد كان يعرف القراءة والكتابة والحساب . مما يتطلبه اشتغاله بالتجارة وقيامه على

---

(١) انظر كتاب القرابة والزواج عند العرب ص ٦٠ وكتاب ثورة الإسلام ص ٣٩٣ .

أمور قريش ومكة . وكانت مناصبه هى الجامعة التى تعلم فيها وتخرج منها ، فكان يرحل إلى كل مكان . ويلتقى كل يوم عند الكعبة بجميع الأجناس والألوان .

تحلى عبد المطلب بمكارم الأخلاق . فكان يكره الزنا ويحرمه ، ويبغض الخمر ويحرمها ، وكان يكره القتل ولو كان واقعاً على غريب ، حتى إنه ترك منادمة صديقه حرب بن أمية ، وكان لا يصبر على فراقه ، لأنه قتل يهودياً . وقيل إنه رفض عبادة الأصنام ، مثلما فعل بعض المستنيرين العرب .

تحدث المسعودى(١) عما كان عبد المطلب يأمر به أبناءه فقال : « وكان عبد المطلب يوصى ولده بصلة الأرحام ، وإطعام الطعام ، ويرغبهم ويرهبهم فعل من يراعى فى التعقب ومعاداً وبعثاً ونشوراً ، وجعل السقاية والرفادة إلى ابنه عبد مناف — وهو أبو طالب — وأوصاه بالنبى صلى الله عليه وسلم » .

كان عبد المطلب يميل إلى السلام ، ويذكر المؤرخ الهندى المسلم (خودابخش(٢) أن عبد المطلب كان يمنع الحروب القبلية . ويطلق هذا المؤرخ على مبدأ السلام هذا « دين عبد المطلب » .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ١٣٢ .
(٢) الحضارة الإسلامية (من ترجمتنا) ص ١٣ .

تطيل عمر
سيارتك
وتحمى
محركها

زيوت
ومحطات خدمة التعاون

منارات الثقة والأمان

أكبر شبكة محطات على جميع الطرق
الزراعية والصحراوية فى جميع انحاء الجمهورية
وبالوادى الجديد وسيناء والصحراء الشرقية

خدمة ممتازة .. تشحيم فنّى
على أحدث الطرق العالمية

٢٤ ٢٥

دار المعارف بمصر

تهدف إلى نشر الثقافة عن طريق الرقى بالكتاب العربى

مكتبة الأطفال والناشئة :

أكبر وأجمل مكتبة للأطفال فى الشرق العربى ، تضم أكثر من ٥٠ مجموعة تستهوى الأطفال بفنها وألوانها .

المكتبة الثقافية :

تقدم آخر ما وصلت إليه المنجزات البشرية ، وتكشف عن القيم الخالدة للتراث الإنسانى .

المكتبة المتخصصة :

تقدم الأعمال العلمية والفنية والأدبية التى تهم القارئ المتخصص .

الكتب المدرسية :

نشرت الكتاب المدرسى فى أرجاء الوطن العربى .

سلسلة (اقرأ) :

طبقت شهرتها الآفاق بتنوع موضوعاتها ، ورخص سعرها .

خدمات التوزيع :

بجانب توزيع كتبها فى جميع أنحاء العالم ، تقوم الدار بتوزيع كتب أخرى مختارة بشروط خاصة .

خذ المعارف من دار المعارف

القاهرة : ١١١٩ كورنيش النيل و ٩ شارع كامل صدقى بالفجالة

الاسكندرية : ٤٢ شارع سعد زغلول - و ٩ ميدان التحرير بالمنشية أسيوط : شارع عبد الرحيم الصوفى

٥ قروش ج . ع . م .	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر	
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب	
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً	
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس		